على الجانب الآخر

اسم الرواية	على الجانب الآخر
تأليف	إنجي مطاوع
المراجعة اللغوية والتدقيق	طه عبدالرءوف سعد
تصميم الغلاف	قسم الجرافيك بدار الوليد
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية	2016 / 16889
الترقيم الدولي	978-977-6560-11-6

الطبعة الأولى **2017**

تطلب كافة منشوراتنا:

حلب: دار الكتاب العربي - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: 2256870

دمشق: مكتبة رياض العليمي - خلف البريد - ت: 2236728

مكتبة التوري - أمام البريد - ت: 2210314

مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: 2228222

مكتبة الفتال - فرع أول - ت: 2456786

- فرع ثاني - ت: 2222373

دار الوليد للدراسات والنشر والترجمة

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودي تلفاكس: 00963/11/2235401 ص.ب

مصر - القاهرة - التجمع الخامس - الحي الأول - بناية 152 - هاتف: 8745162

لبنان - تليفون: 434186/ 05 - 652241/ 03 - ص.ب 3043 الشو

daralwaled@yahoo.com

حقوق الطبع محفوظة

تحذير: جميع الحقوق محفوظة لدار الوليد للدراسات والنشر والترجمة وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو ا منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية أو نقله بأية وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على ا بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

على الجانب الآخر

إنچي مطاوع

الوليد
للدراسات والنشر والترجمة

تطلب المنشورات من دور النشر والمكتبات التالية

البلد	أسماء المكتبات
مصر	دار الكتاب العربي: ٢٥ شارع عبدالخالق ثروت (القاهرة) – مكتبات الشروق – مكتبات ديوان شركة الشرق للمكتبات – مكتبات مؤسسة الأهرام – مكتبات أخبار اليوم – مكتبة منشأة المعارف (الإسكندرية) – مكتبات دار الفاروق (هابر ٦ أكتوبر) – مكتبات (أ) – مكتبة الكتب خان – مكتبة الخياط (الإسكندرية) – مكتبة دار الحديث (أسوان) – كتابيكو – مكتبات فكرة
ليبيا	طرابلس: المكتبة العلمية – المكتبة العربية – مكتبة السلام – دار الوليد – دار المعرفة – مكتبة ١٧ فبراير (بنغازي) – دار الجبل (بنغازي) – مكتبة الشعب (مصراته)
تونس	إداريات ومعارف سوسة – شركة كتبكم تونس – المركز التونسي للكتاب – دار المعرفة – مكتبة تونس – دار الجيل – مكتبة الكتاب – سوبيس – مكتبة نومام
الجزائر	مكتبة العزة والكرامة (وهران) – مكتبات العزة والكرامة بالعاصمة الجزائر وسائر فروعها
المغرب	الدار العالمية – دار الإنعتاق الثقافي – دار الثقافة – دار الأمان – مكتبة الألفية الثالثة – وراقة البادرة – دار إحياء العلوم الزاهرة – الناشر الأطلسي – وراقة الجنوب – مكتبة فرنسا – مكتبة باريس
السعودية	مكتبات الشواف (الرياض/ الدمام) – مكتبات جرير – مكتبات العبيكان – مكتبات نهضة – مكتبات الرشد – دار الوراق – مكتبة المتنبي (الدمام) – كنوز المعرفة (جدة) – روائع المعرفة (جدة) – المكتبة التراثية
الإمارات	مكتبة زين العمراني (دبي) – مكتبات دبي للتوزيع – المكتبة التجارية (العين) – مكتبات جرير – الفرج ميديا للنشر والتوزيع (أبو ظبي)
الكويت	مكتبات ذات السلاسل – دار الذكر الحديث – مكتبة العجيري – مكتبة الرسالة – الشركة المتحدة لتوزيع الصحف – مكتبات جرير – دار آفاق
سلطنة عمان	مسقط: مكتبات جرير – أحمد ناصيف
البحرين	المكتبة الوطنية (المنامة) – مكتبات جرير
العراق	دار الكتب العلمية (بغداد) – دار الندى للعلوم والثقافة (أربيل) – دار التفسير (أربيل) – مكتبة هورمان (أربيل) – مكتبة برايتي (أربيل) – المكتبة القانونية – مكتبة النهضة (بغداد) – مكتبة السنجري (الموصل) – دار الزمان (أدهوك) – مؤسسة الصباح (بغداد) – مكتبة المعرفة (باب المعظم)
الأردن	مكتبة دنديس – دار أسامة – مكتبة الفرسان – دار صفحات – كشك الثقافة العربية حسن أبو علي – دار جلون
فلسطين	مكتبة دنديس (الخليل) – مكتبة القدس (القدس الشريف) – دار المعتمد للنشر (الخليل) – دار الجندي (القدس)
السودان	مكتبات القاضي (الخرطوم – أم درمان) – مكتبة الدار البيضاء (أم درمان) – وادي النيل للتنمية البشرية (الخرطوم)
لبنان	شركة الشرق الأوسط – النيل والفرات كوم

سوريا – دمشق – الحجاز – شارع مسلم البارودي تلفاكس: 2235401 ص.ب 34825
مصر – القاهرة – 52 شارع عبدالخالق ثروت – شقة 11 تليفون: 23916122 – فاكس: 23933671
لبنان – تليفون: 434186 / 05- 652241 / 03 – ص.ب 3043 الشويفات

darelkitab@yahoo.com - daralwalid@yahoo.com - info@darketab.com
www.darketab.com
http://www.facebook.com/groups/darketab
http://twitter.com/darelkitab
http://www.youtube.com/darelkitab

إهـــــــداء

إلى حقيقةٍ عَرجاء زيَّفها تجبُّر محتَّلٍ في مقابل خنوع ولاة الأمر .

إلى نهاية نرجوها في ظلِّ ضَعْفٍ وخيانَةٍ بين عباءاتنا تعيش .

إلى المطمور بجوْفِ الظُّلَمِ وبتجلِّيْهِ تسقُطُ أصنامُ الزِّيف محطمةً .

إلى الحقِّ والحقيقةِ , اطمئِّنوا يومًا سنُصلِّي مَعكُم في وِئامٍ وأمانٍ .

* * *

على أعتاب حكايتي . . .

اخلع نعالَ أفكارك السخيفة ،

اطردْ دون تردد معتقداتك البالية ؛

انتظر إلوهيم في فضاء العدم السرمدي ،

ليتجلَّى ويَزيلُ الغشاوةَ عن بصيرتنا . . .

فتضيءُ بأشعتها قناديل ونجوم نور الحق ،

ويُشعل فيروز نقاءِ الفِطْرة في حنايا أرواحنا ،

لنتحرر من عبودية شهوات الديمومة . . .

فتنشرُ عبير الطمأنينة ورحيق الإيمان في سماء الدنيا ،

ويُغطيِّ الأرض ربيعُ القناعة والسلام ؛ لنعيشَ العصر الماسيَّ .

* * *

أنا . .

المستبيحُ لِعِرْضِكَ بسبب قانون إيماني . .

القاتل بدم بارد لزوجتك وطفلك وشبابك . .

لكن لا تُحاكمني قبل أن تتعرَّفَ على حياتي . .

فهناك على الجانب الآخر حيث أعيش . .

بدأت أحداث الحكاية . . .

1- ميزار قتيل

أيقظتني ماما باكيةً فزعَةً تطلب أن ارتدي ملابسًا للحداد سريعًا، لم تخبرْني لماذا؛ فظننت أنها إحدى صديقاتها الأثيرات، ارتديت ملابسي، ثم ذهبت لأغسل يدي وقدمي، غطَّيْتُ شعري بدأت بالـ "شماع" (١) "اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد، فتحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك ومن كل قوتك، ولتكن هذه الكلمات التي أوصيك بها اليوم على قلبك، وقُصَّها على أولادك، وتكلم بها حين تجلس في بيتك، حين تمشي في الطريق، وحين تنام وحين تقوم، واربطها علامةً على يدك، ولتكن عصائبَ بين عينيك، واكتبْها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك"، ثم ختمت بدعاء "نحمد إله العالمين، أنه لم يجعلْنا مثل أمم الأرض، فهم يسجدون للباطل والعدم ويصلُّون لإله لا ينفعهم" آمين. .

ذهبت إليها عندما انتهيت لتثير استغرابي أكثر، أخبرتْني أن لديها خبرًا سيئًا، وأنني أحتاج تناول حقنتني المهدئة، رفضْتُ

(١) "شماع" هو "قانون الإيمان اليهودي" وهو مقاطع تؤكد على وحدانية الإله، قبول وصاياه والمحبة له، تتلى مرتين يوميًا، ثم يعقبها عميداه" "شيمونة عسرة" أي "وقوف" يتم التوجه ناحية بيت المقدس للصلاة وهي مكونه من ١٩ بركة.

فأصرَّت واقتربت لتحقنني معللةً الأمر بأنني لا أملك القوة لسماع ما ستخبرني به، حاولت التملَّص لكن وسط بكائها استشعرت قوة ما سيحلُ على رأسي من شؤم, فوافقت لأريحها، كنت أكتم ضحكاتي بصعوبة، من منَّا يحتاج المهدئ ماما، هي دوْمًا تختار الحلَّ السهل، شكشكتي بحقنة مهدئ، ثم إخباري بأخبار بائسة معتقدة أنها ستحطم أعصابي.

هذه المرة تفوقت على نفسها، أسمعتني خبر شؤم لا يَحتمل إنسان أن يستيقظ عليه صباحًا، صحيح نحنُ معتادون في بلادي على مثل هذه الأخبار؛ لكنها عندما تلمسنا توجع وتؤلم أكثر، ظللت أصرخ حتى فقدت الشعور بجسدي، كما لو كنت أعوم بين سحب السماء، مشيت معها نصف واعية ونصف مُغيبة، كم أكره هذا الشعور، هذا المهدئ يحولني إلى مجرد بهيمة عجماء ينقصني القيد لأُسحب من رقبتي.

خارج المنزل وجدت سيارة تتبع عمل بابا في الانتظار، انطلقت بنا وسط نحيب وولولة ماما، وضياع وسكون يقيد حركتي.

معذورةٌ ماما..

الرَّبُ معكِ، بابا هو حب حياتها، ومن منحها كل ما تتمنى وتشتهي: المال والسلطة والهيلمان والمركز الاجتماعي، منذ أن تزوَجَته والجميع يهابها كما يهابه بل أكثر، فقد يغفر هو لهم زلاتهم أما ماما فلا تغفر بسهولة لأي شخص مهما كانت معزَّتُه.

كان الوصول لمستشفى "رامبام" أَمْرًا هينًا بما أننا لازلنا في السادسة صباحًا، عندما وصلنا وجدنا العم "فيلبي" صديق بابا في الانتظار قدم لنا العزاء وضمني بحنان عارضًا خدماته، وكيف أنه لن يتأخر عنَّا مهما كان الأمر، فنحن كما عائلته وهو كما والدي، حينها بكت ماما أكثر وطلبت أن تراه، أشار على الاتجاه الذي سنسلكه وجاء معنا متخطين الاستقبال حتى وجدنا "يهوشع" في أحد أركان الصالة الرئيسية للانتظار ومعه بعض الأشخاص يتحدثون.

عندما اقتربنا سمعته يسأل عن موعد وصول الموكب، وحينما لمحنا جاء سريعًا ليحتضن ماما ويقبلها دون أي كلمة، ثم طلب مني أن أرعاها حتى يُنهي بعض الشؤون الخاصة بالجنازة مع العم "فيلبي"، حركْتُ رأسي بالموافقة، فأكمل: إنهما ينتظران الموكب الذي سيقل الجثمان برًا إلى المقبرة العسكرية على جبل "هرتسل" بأورشاليم عندما يصل سيلحق بنا.

أشار لأحد الممرضين كي يوصلنا إلى الغرفة المسجَّى فيها جسده، أخبرنا العم "فيلبي" أنه لم يسمحْ لهم بوضعه في الثلاجة حتى نأتي ونراه.

أعتقد أن حُبَّه القديم لماما منذ كانت تعمل ممثلة إعلانات شهيرة قد ساعدها، فقد كان يتنافس مع بابا للتقرب منها، لكنها فضَّلَتْ البابا عليه.

أولا: لثرائه، ثانيا: لأنه مثلها أشد إيمانا بأرض الميعاد.

أما العم "فيلبي" فهو يرى في إسرائيل مجرد دولة منتعشة اقتصاديًّا توفر له ما لا قد يوفره أي مكان آخر له، هكذا كانت تُفسِّرُ ماما الأمر عندما يسألها "يهوشع".

تستحق التنافس عليها، هي طويلة ممشوقة القوام، شقراء بعينين زرقاويْن صافيتين كبحر حيفا، بيضاء مُشربة بالحمرة، جسد مثالي كما لو كانت هيلانه عادت إلى الأرض من جديد، تهتم بكل سنتيمتر في جسدها، وكأنه سيبقى للأبد، بضٌّ شابٌّ متخطيًا الزمن وأفعاله، إن أردتم الحقيقة لولا أنها تُجبرني على الاهتمام بالرياضة والذهاب للجيمانزيوم وتناول الوجبات الصحية، لما أوليت اهتمامي لشيء سوى أبحاثي وجامعتي، لكنها ترى لأنني أُشبهها بالتمام إنني وريثتها على عرش الجمال

وواجهتها لذا . . عليَّ أن أنفِّذَ كل ما تقول، وإلا عاقبتني بنسيان حصتي من عشاء "الشبات"[1]، وتركي لأموت جوعًا حتى اليوم التالي، وستُطفئ "شمعه الهفدالاه" وحدَها، خاصة وأن أخي لا تراه إلا لماما بسبب عمله، وبابا مشغول أغلب الأحيان في مأموريّات خاصة بعدما رقيَّ وأصبح مسؤولًا عن لواءٍ كامل لذا . . فإنَّ تركيزها مُنصبًّا علي أنا لسوء حظي.

* * *

دخل علينا "يهوشع" لم أكن قد لاحظت أنه حليق شعر الذقن والرأس، احتضن ماما ثانية مواسيًا وأخبرها:

ـ لا تحزني، لن يمر الأمر بسلام وسينتقم زملاؤه من القتلة الإرهابيين، عليك أن تفخري به "كيتي" فهو بطل وسيُسجَّلُ اسمه في سِجل من ضَحُّوا بأرواحهم في سبيل مجد "إسرائيل"، أتعلمين سيحضر "شفيعه" رئيس الدولة، ورئيس الوزراء ووزير الدفاع وكثيرون معهم لأنه يستحق كل هذا، وسيفرح بذلك، اهدئي سأقيم شعائر التفيلة[2] لا العم "فيلبي".

(١) السبت

(٢) الصلاة

ـ لم أكن أعلم أنك مرتبط به هكذا، سيفرح كثيراً بك أخي.
ـ لا وقت لمَ تقولين الآن، سنقيم عليه مناحة سبعة أيام، لن تذهبي للجامعة، اعتذري عن كل ارتباطاتك، وتجهزا أنت وماما سنصوم للمساء، وعليكما ألا تتزينا أو تتعطرا، وحافظا على ارتداء ثياب الحداد، لا أريد أية مظاهر لا تدل على حزننا عليه، "طلبت "جوبيتا" وستأتي بـ "ميمون" و"إلي" بعد قليل.
ـ لا تحتاج لإخبارنا كل هذا "يهوشع" هو زوجي الحبيب.. كيف أتغاضى عن أي شيء يريحه في "أزليته"؟!
ـ ماذا حدث لقميصك؟! تشاجرت بسبب نسائك كالعادة!.
ـ لم أشعر بنفسي وأنا أمزقه عندما سمعت الخبر، أود لو أحث على رأسي من تراب مقبرته أيتها المشاغبة الحقودة، ولكنني سأفعلها عمداً، وأمزِّقُ وشاحي في صلاة التمزيق.
ـ الرب يحميك، لقد نسيت هذا الطقس الجنائزي، بوركت.
ـ أنا لم ولن أنسى شيئًا، أرسلت أيضًا في إحضار الحاخام "مئير بيرتس" لتفيلة "القاديش" اليوم، وسأتولاها أنا باقي فترة الحداد، يجب علينا أن نحزن كما يجب أن يكون الحزن

عليه، وعلينا الذهاب لزيارته في "بيت الأزلية" في الأعياد والمناسبات، لن ننساه لن أسمح لكما.

ـ سأرتدي ملابس الحداد، وأمارس طقوسه أحد عشر شهراً ويومًا بالتمام، وسأمارسَ صلاة الشكر يوميًا، وبعد السنة الأولى سأُذكر ماما أن نقيم الصلاة على روحه في المعبد في عيد الغفران والأيام الأخيرة من عيد الفصح وسكوت وشيوعرت، هل يكفيك هذا؟!.

صرخت ماما وهي تقاوم هطول دموعها وتشنجاتها المتتالية:

ـ كفاكما، يا من تتشدقين بالحزن هيا اقتربي شاهدي أباكِ مَسجَّى بسبب من كنت سترتمين بين أحضانهم، هيا انظري مما أنقذك، ودِّعي أباكِ قبل أن يتمَّ تجهيزه ويوضع في نعشه.

قاومت نظرات "يهوشع" الحارقة، إلى متى سيظُّلون يعاقبونني على ما حدث منذ عشرة أعوام، اقتربْتُ ساحبةً قدميَّ حتى وقفت أمام جسده، وجهه كان هادئًا جدًّا، لم أستطع مقاومة شعوري بالذنب أكثر، لتنهمر أمطار عيني أكثر، بعد قليل سيكفن ويغطَّى بشال صلاته بعد أن نزعت ماما منه الأهداب.

آه يا بابا، لم نتخيل قط أن تكون هذه نهاية البطل المغوار، حتى عندما أبلغ زميلك وصديقك العزيز "فيلبي" أخي

"يهوشع" باغتيالك، كنت تقوم بواجبك المقدس في حماية أمن إسرائيل، أعلم أنه وماما للآن لا يصدقان، ويظنان أن في الأمر خدعةً، يعتقدان أن الأمر مجرد هراء سيُثبت زيفه عند هدوء الأوضاع بدخولك علينا المنزل، أعلم ماما وشطحات أفكارها الخيالية.

* * *

2- جامعه الكعب العالى

اسمي "تويفا ميزار" أعيش على الجانب الآخر من كل شيء، على هامش الحياة، وعلى حافة الحقيقة ووسط بئر عَفنة من الكذب والخداع، تُحيطني بركُ الزَّيف وأوحاله، أحاول أن أَزيل كل هذا، وإن اتهمْتَ بالإلحاد ومعاداة أبناء جلدتي، أنا أستاذ في علم الآثار كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعه حيفا.

أقطن إسرائيل ولا أعرف لي موطنًا غيرها، هي أرض ميلادي وشبابي، أرض ذكرياتي وحياتي، يدَّعون أنني شخصيةٌ سلبيةٌ، لا تهمني مصلحة أبناء بلدي ولا نصرتهم، بالعكس أضُرُّهم بمحاضراتي التي يدور أغلبها على إثبات زيف الأساطير المؤسِّسة لدولة إسرائيل، مع أن كل ما أدرسه في الجامعة موثقٌ بدراسات تاريخية، وأبحاث على أرض الواقع، لذا وافقت إدارة الجامعة على تدريسي هذه المقررات، أحاول إصلاح الاعوجاج في السياسة الحاكمة لكياننا الحديث، لكنهم يصرِّون بدكتاتورية على سلبي حريتي في الدفاع عن شرعية وجودنا.

كثيراً ما تُوبِّخُني والدتي وتتساءل عمَّا غيَّر شخصيتي، من تلْكَ الفتاة المطيعة الحنونة إلى فتاة متبلدة باردة هكذا، وتتهمني

بأنني أُفسدُ جيلًا كاملًا بزرع أفكاري العقيمة في عقول أطفال في سن المراهقة، وإقناعهم بأن أرض الميعاد وْهمٌ نسجه الساسة لأسباب تخصهم، وبأن الأصل في شَعْبِ إسرائيل التشتت، أما والدي فيتهمني بأنني نكبة العائلة لرفضي المشاركة في الاجتماعات العائلية أو حضور ندوات حزب شاس الذي يؤمن والداي وأخي "يهوشع" بأنه سبيل الخلاص للشعب اليهودي عندما يحكم الحزب، ويطبق السنهدرين بكل ما فيه، خاصة بعد حادثتي القديمة والتي يلوكونها بألسنتهم دوْمًا كي يُخضعوني لأوامرهم البائسة.

لديَّ صديقان الأول "جيزيس عزرا" زميلي بنفس الكلية أستاذ في قسم دراسات إسرائيل، يُعاني كثيرًا من اسمه فمعناه بالعربية "عيسى" وكثيرًا ما يتهمه زملاؤنا من المتشدِّدون بأنه مسيحي متنكِّرٌ، وأنَّ له أصول مسيحية، خاصة وأنه سفاردي من يهود المغرب، والثاني "وليد حسان" زميل وصديق دراسة له نفس اهتماماتي تقريبًا لكنه اكتفى بالعمل معلِّمًا لمادة التاريخ في مدرسة قريبة من منزلة في "وادي النسناس"، يعشق السفر والترحال ويرى الزواج مقبرة للحرية، هو صديقي المقرَّب.

يتهمونني أحيانًا بمعاداة السامية بسببه خاصة مع اهتمامي بالعرب وتراثهم وتوثيقه والبحث في مصادر وأصول أساطيرنا

الشعبية كيهود، ولولا علاقات ونفوذ بابا السياسي، ومكانة أخي صاحب شركة "هاس للاستيراد والتصدير" وهي من أكبر الشركات في ميناء حيفا، لضعت أنا ومستقبلي المهني، لذا فصداقاتي قليلة جداً في العموم، وأكتفي بصداقات عائلتي وعملي واليوم الترفيهي وبعض النشاطات البسيطة للجامعة، يساعدني في عملي علاقاتي المتميزة مع بعض الطلاب من العرب واليهود في القسم، أو من خريجيه السابقين، يساعدونني في أبحاثي دون مقابل، وفي النهاية مُتعتي الوحيدة هي الجامعة.

يُسعدني أن إدارة الكلية ترفع نفس الشعار: "من طلب العلا سهر الليالي"، إذ أنّه ساري المفعول لكل الموضوعات التعليميّة في الجامعة، علينا جميعًا طلابًا وأساتذة السعي على رفْعَه شأن الكلية بل الجامعة كلها دومًا وغير مقبول بأيّة استثناءات أَو مَعوقات.

ورغم أن الجامعة أغلب الأحيان تسعى لتحديد أعداد العرب في كل قسم لضمان السيطرة بحيث لا يحدث شغب أو تحدث مصادمات لا تُحْمَدُ عقباها، فنحن الجامعة الوحيدة تقريبًا التي يدرس فيها نسبة كبيرة من العرب، ساعد على ذلك انخفاض نسبي في رسوم الجامعة، حيث تبلغ (٢٥ ألف شيكل تقريبًا) في حين

جامعه "تخنيون" مثلًا رسومها الجامعية تبلغ حوالي (٣٥ ألف شيكل تقريبًا).

يسهم توافر باصات "الكرمليت" للتنقل بين المناطق العربية والجامعة، والتنوع السكاني في حيفا، وطبعها المسالم حيث يتعايش اليهود مع العرب في سلام ووئام، خاصة وأنها من المدن المتوسطة وليست بالباهظة الرفاهية، ولكن تظل المناطق العربية هنا هي الأرخص مثل الناصرة وطمره وسخنين ووادي حليصه وما يجاورها من قرى عن مثيلاتها من المناطق اليهودية.

كانت تأتي أزمتي الشخصية أيام الجامعة من أن أخي درس في جامعة "تخنيون" قسم الحاسب الآلي، ولا يمكن بأية حال من الأحوال المقارنة بين جامعتي وجامعته، فيكفي أن أقول إنَّ جامعتي مشهورة بأنها "جامعه الكعب العالي" و"جامعه حيفا للأفراح والمناسبات" نتيجة لاختلاف المستوى التعليمي والمقررات التي تدرس وسهولة النجاح فيها.

كما أنه في جامعه "حيفا" لا توجد ضرورة ملِّحه لحضور أغلب المحاضرات مما يتبعه تمكن الطلبة من ممارسة حياة اجتماعية غاية في الانطلاق، معتمدين على مساعدات ذويهم المالية، أو على الأقل ترك المحاضرات والجلوس طيلة اليوم في حرم الجامعة على

الديشت،[1] ثم العودة للسكن أو شققهم المستأجرة بالقرب من الجامعة.

وداخل الجامعة سياسيًا وفي ظل دولة ديمقراطية مثل دولة إسرائيل، للطلاب الحق في ممارسة ما يريدونه، المهم عدم إثارة الشغب، يظهر هذا بوضوح من خلال الانتخابات النقابية للحركات الطلابية، عندما تتابعها تكتشف كم هي صورة مصغرة للحياة السياسية في الدولة ككل.

فهذه حركة طلابية تتخذ شكل حزب طلابي ليبرالي لا يهمه غير السياسة والحديث عنها، وذاك على شكل حزب ديني يهتم أكثر ما يهتم بتعاليم إسلامهم، وعقد الندوات عنه لباقي الطلبة العرب، والأخير حركة طلابية تتخذ هيئة لحزْبٍ معتدل الأفكار يهتم بالطلبة وشؤونهم الفعلية، وحل مشاكلهم الجامعية.

نخرج قليلًا من حَيِّز الجامعة الصغير، لنسبح قليلًا في سماء حيفا المبهجة، إذا أردتَ أن أصف حيفا وجبل الكرمل خاصة كما كان يُطلب منا في المدرسة صغاراً، فلا يمكن أن أقول أكثر من أنها مدينه مكوَّنةٌ من ثلاث طبقات، البلدة التحتي[2] نُسميها أحيانًا

(١) الحشائش

(٢) المدينة السفلى.

هاعير هاتحتيت، وهي التي تضم الميناء باعتبارها المركز التجاري والصناعي، ثم الطبقة الوسطى الممتدة عبر منحدر جبل الكرمل وتضم الأحياء السكنية القديمة خاصة العربية.

أخيراً المدينة العليا التي تضم الأحياء الجديدة المشرفة على المدينة نقطنها نحن اليهود، من أعلى سفح الكرمل يمكن رؤية باتجاه الشمال كافة أنحاء الجليل الغربي حتى رأس الناقورة على الحدود اللبنانية، وكذلك ناحية الشمال الشرقي يمكن رؤية جبل الشيخ.

مدينه جميلة هادئة في ظل انتشار المسطحات الخضراء، لكن صبراً فالصدمة الكبرى أن كثيراً من الدراسات أثبتت أن سكان حيفا الأكثر إصابة بالسرطان بسبب المصانع المنتشرة في المدينة، ثم أن مناخ حيفا معتدل في معظم الأحيان، لكنَّ وقوعها على شاطئ البحر يجعل الحياة في فصل الصيف صعبةً، لأن درجات الرطوبة تكون مرتفعة جداً، أما فصل الشتاء فالطقس بارد أغلب الأحيان.

يسبب تميُّزَ مَوْقعنا اختناقات مرورية رغم أنها مقسمة عموديًا على ثلاث مناطق تحتل جبل "الكرمل"، وأزمات أمنية، فليس كل العرب واسعي الصدر معنا نحن اليهود، ولا اليهود أجمعون معجبون بتواجد العرب بين ظهرانيهم.

أحيانًا أشعر بأنني الوحيدة المتقبلة لوجودهم، ربما لخلفية قربي وتعاملي معهم منذ أكثر من عشرة أعوام حينما تعرفت على "عامر عبد الجبار" في الكلية فَعن طريقة تعرفت على الجانب الفلسطيني كما يجب أن يكون وعلى العرب عامة.

بداية تعارفنا كانت في إحدى الرحلات التي تُنظمها الجامعة تحت مسمى "اليوم الترفيهي" كانت تتم يوم الأربعاء من كل أسبوع، لدعم الأجواء الاجتماعية بين الطلاب اليهود والعرب، عن طريقها شاهدنا كثيراً من المعالم الأثرية والسياحية مثل:

قبّة عبّاس، جادّة "بن غوريون" ومقاهيها المميزة، مسرح الميدان، ذهبنا أيضًا إلى عديد من المراكز التجاريّة، وأخيراً وليس آخر بحر حيفا، كانت هذه آخر رحلة في عامي الجامعي الأول حيث بدأت علاقتي بـ "عامر".

* * *

3- سيقتلني والداي

البحر مُتعتي الأثيرة، فأنا سبَّاحةٌ ماهرةٌ، ذهبت في رحلة إلى شاطئ حيفا نظمتها الجامعة، أثناء استمتاعي بالمياه والسباحة بكل انسجام، سماء صافية، بحر موجةُ ناعمٌ، حركات الأمواج متناغمة تدغدغ جسدي بليونة، كل شيء يبثُّ في روحي الراحة، بحر حيفا نعمةٌ من نعَم الرب على أبنائه المصطفين من أولاد إسرائيل، أفسد علي اللحظة خيالا أسود، بين غمضة عين وأخرى لمحت شبحًا من بعيد يقاوم الموج، لم أميِّز ملامحه، فانطلقت سابحة إلى هناك، سحبته متمسكة به من ظهره كي لا يغرقني معه وأنا أصلي للرب أن ينجيه، وصلت للشاطئ حيث استقبلنا زملائي والأساتذة فتلقوه مني ووضعوه على الرمال لإسعافه.

انحنيت مستندةً على ركبتيْ في محاولة لتنظيم تنفسي بعد كل هذه الإثارة ومشاعر الرعب والفزع، بدأت رفع رأسي لأنظر إليه والهمهمة تعلن أنه بخير، فوجئت به يتحدث بصوت خفيض " لا إله إلا الله محمد رسول الله " ، يا ربي الرحيم سيقتلني والداي إذا نما إلى علمهما أنني أنقْذتُ فلسطينيًا ومسلمًا، سيتهمانني بإنقاذ من سيقتُل أخي ويفجِّر عائلتي ويشرِّد أطفالي مستقبلًا.

مـرَّتْ عـشر دقـائق وأنـا متـصلبة كـشجرة جَـرَفَ الخريـف أوراقهـا، بـدأ تجمـع الـزملاء والـسادة أعـضاء هيئـة التـدريس في الانصراف كلٌّ إلى شأنه بعد الاطمئنان علـى الغريـق المُنْقـذ، مـنهم من منحني كلمة أو نظرة شكر، ومنهم من رمقني شذرًا وهـم مـن زملائي اليهـود بـالطبع، تمنيـت لـو تخـسف الأرض أو أن تـواتيني الجرأة للتحدث فأخبرهم أنني لم أكن أعلم أنه عربي ومـسلم، يـا أدوناي ماذا أفعل الآن؟، ساءت هيـبتي وبالتأكيـد سـيُنكل بـي في الخفاء.

رمقته مرة أخرى بكلِّ غلٍّ، ليـت لـدي القـدرة علـى إحراقـه بنظراتي، لا أعلم ما شعر بـه تجـاهي، لكـنني فوجئـت بـه يبتـسم ابتسامةً رقيقةً ويشكرني معتـذرًا علـى إفـساد لحظـتي واسـتمتاعي بالسباحة، أربكني اعتـذارُه وقلبـت كيـاني ابتـسامته رغـم حنقـي الشديد عليه، لا أعلم لماذا يبتـسم؟، همهمـت بكلمـات بـسيطة، كنت فيها أدعو عليه وعلى النهار الذي انضممت فيه لهذه الرحلـة المشئومة، فبادر بأخذ دفة الحديث:

ـ هل تتذمرين أم تدعين على شخصي البائس؟!

عندها حَدَجْتُه بنظرة صارمة باردة، فمد يده يصافحني قائلًا:

ـ "عامر عبد الجبار" من "وادي النسناس".

ـ "تويفا" من "الكرمل الفرنسي"
ـ تفهمين العربية هذا أمر جميل.
ـ أعشق اللغات هل لديك مانع؟!
ـ كم لغة تجيدين إذن؟
ـ الألمانية والفرنسية والانجليزية والسريانية، وحاليا أعكف على تعلم اللاتينية والهيروغليفية.
ـ والعربية، ما شاء الله يليق عليكِ الأمر، بالتأكيد لا تحملين همِّ شيء، وأنتِ تقطنين في منطقة الأثرياء، أحسدكِ على قربكِ من مؤتمر "أوديتوريوم حيفا" و"مركز الكرمل" وإمكانية رؤية كافة أنحاء الجليل الغربي حتى رأس الناقورة على الحدود اللبنانية، تعيشين في الجنة إذا سألتني رأيي، أعلم من أنتِ، فأنتِ أشهر من النار على العلم في الجامعة كلها.
ـ نعم يمكنك مشاهدة السهل والبحر وكل طبقات جبل الكرمل من ساحة دير "ستيلا ماريس".
ـ هل يمكنني زيارتك عندما أريد مشاهدة هذه المناطق؟
ـ علىَّ الذهاب.

ـ انتظري أمزح معكِ لن آتي عندكِ فعليًا، أعرف عائلتكِ وتاريخها المناهض للوجود الفلسطيني.

ـ لست مثل عائلتي ولا يهمني أيا من اهتماماتهم، لدي أفكاري ومعتقداتي الخاصة، كما أنهم يبحثون عن الحق ويدافعون عنه لا مُدَّعون مثلكم.

ـ حقًا.

ـ نعم فأنا أحبُّ الآثارَ وكل ما يمت لها بصلة.

ـ أعلم، فأنا معكِ بنفس القسم على فكرة، وأراكِ بصفة دورية لكنك لا تلاحظين وجودي.

ـ لا أنتبه، أهتمّ فقط لدروسي.

ـ أتذكرين يوم ذهبنا إلى متحف هيشت؟

ـ لا أحب تذكر هذه الزيارة.

ـ لماذا؟

لم أرتح لابتسامته الصفراء؛ فأجبته مرتبطة معي بذكرى سيئة لكنه في النهاية يبقى يومًا ممتعًا.

ـ لا أعرف كيف كنت ستتسببين في سقوط القطعة الأثرية من المفترض أن تنتبهي لكل خطوة داخل أي مكان أثري، هذه أبجديات التعامل مع الآثار والإنسانيات.

أغضبني بحق، يحاول إثارة أعصابي، يعلم إذًا الذكرى السيئة، تمنيت لو كنت تركته يغرق، حاولت أخذ ثأري منه فأجبته بغضب وعصبية:

ـ لم أكن أقصد، ثم أن "عزرا" كان يضايقني كما تفعل الآن مما وتَّرني وجعلني أتخبط في الجميع، واضح أنك تتابعني حقًا ثم ما دخلك أنتَ؟، وكيف تبدو نشطًا بالنسبة لشخص كان يغرق منذ دقائق؟!.

ـ لياقة بدنية، أو ربما أردت جذْب انتباهك، من يعلم..

انتظري لا تنصرفي لم أقصد مضايقتك، ما رأيك لو أتيت معنا وادي النسناس وزيارة "بيت الكرمة"؟، نحن في كانون الأول وبعد غد تفتتح بلدية حيفا أسبوع المهرجان الثقافي[1] بمناسبة عيد الأضحى وعيد الميلاد المسيحي وعيدكم عيد التدشين[2] أتذكرين احتفالًا بدخول يهود الحشموني القدس، وموضوع الهيكل، وهذه الأمور؟!".

ـ لا أذهب للمناطق العربية، هل أنتَ بهائي؟

(١) عيد الأعياد

(٢) عيد حانوكا

ـ في نظركم كل مذاهبنا واحدة، وافقي، هناك إشاعات أن المهرجان سيُقام هذه المرة فقط، ولن يقام ثانية بسبب اعتراضات أهالي الوادي، ثم إذا وافقت سنصطحبك معنا مهرجان " أسبوع الكتاب العربي " في موسم الصيف.

ـ من أنتم؟ ولماذا يعترض الأهالي؟

ـ يعترضون لأنه يفترض وجود تطبيع فعلي بين اليهود والمسلمين والمسيحيين، وسلام نفسي متبادل، وتعايش سلمي، ولكن هذا ليس بالصحيح، مجرد وَهَمٍ تحاول الحكومة فرضه على المواطنين ليبرزه الإعلام بكل زيف، كما أن الوادي منطقة سكنية وليس سياحية، ليأتي اليهود لمشاهدة العرب إذا كان الأمر تطبيعًا فعليًا، فلماذا لا يقوم اليهود بإقامة احتفال يحضره العرب داخل الأحياء اليهودية بالمثل؟ عمومًا بلدية حيفا تحاول ادِّعاء أن كلَّ شيء سليم حتى وإن كان الثمن الأهالي ذاتهم، أما سؤال من نحن فإذا قبلت دعوتي سأعرفك بباقي مجموعتي نحن فلسطينيون متنوِّعَو الأديان اجتمعنا على حب بلادنا وأرضنا وتراثها وضرورة الحفاظ عليها، لكنَّ المُقرَّبين أربعة غيري.

ـ يبدو الأمر سياسيًّا جدًّا، وأنا لا شأن لي بالأمور السياسية لا أحب الخوض فيها.

ـ نحن مجرد شباب مهتمون بالآثار والآثار فقط، لم أذكر السياسة.

ـ قلت "بلادنا وأرضنا وتراثها وضرورة الحفاظ عليها".

ـ أليست هذه بلادك وأرضك وتحبينها أيضًا، ثم أنا أتابعك من أول شهر لك في الجامعة، ولمست مدى عشقك للآثار، وفصلك للسياسة عن حياتك، وعدم اهتمامك بأي شيء سوى الآثار وكشف لثام حقيقتها.

ـ نعم فأنا سأثبت يومًا زيف ادعائكم أنكم مالكو الأرض فنحن مالكوها بوعد الرب.

ـ معنا يهود على فكرة، هل ستأتي معنا ويمكن إثبات ما تشائين بعد ذلك؟!

انتهى الحديث بيننا بأن صحبني معه وعرَّفني بباقي المجموعة، بدأت معهم زيارة أماكن كثيرة في الطبقات الثلاث لجبل "كرمل"، كانت أولُّها زيارة "بيت الكرمة"[1] وجدْنا أنهً وضِع

(١) عبارة عن مركز عربي يهودي

خارج المبنى يافطة كبيرة ترحب بالجميع بمناسبة عيد الأعياد باللغة العبرية والعربية.

تجولنا طيلة اليوم في شوارع وادي النسناس، شاهدنا من الخارج مدرسة الإخوة، ومدرسة ماريوحنا الإنجيلي، أكثر ما لاحظته أن المباني قديمة جدًا، والأهالي يبدون مهمَّشين وفقراء جدًا، كيف يخرج من بين هؤلاء أشخاص مثل "وليد" و"عامر" يتعلمون ويخططون ويعيشون الحياة بكل عقل؟!.

توجهنا إلى مسرح الميدان المميَّز بواجهته الزجاجية الجميلة، والمصمم على الطراز الحديث، وجدنا خارجة فريقًا من فنانين فلسطينيين يحتفلون بتراثهم في حيفا، يرتدون الزِّيَ الشعبي: تلك الأردية النسائية المشغولة باليد ومطرزة بألوان مميزة، ويضعون على رؤوسهم إيشاربات بيضاء[1]، والرجال يرتدون زيهم الشعبي، ويضعون على رؤوسهم إيشاربات أيضًا، وشيءٌ آخر أغلظ يدورونه حوله[2]، ويقومون بالرقص والغناء بأغاني موروثة منذ أجيال كما قال "عامر" بعدها استمعنا لموسيقى بهائية، وأخرى معاصرة بعدها أتت فرقة إسرائيلية بدأت في العزف والرقص.

(١) حطه

(٢) عقال

كان هناك فنانون للرسم على الوجوه فاستغلت "جوبيتا" الفرصة، ورسمت على وجهها وجه نمر وقلدتها "تينا" واختارت وجه عصفور مازحها "إزيه" بأن عليها أن ترسم وجه فيل سيكون أجمل عليها لكنها لم ترد عليه، "وليد" اختار رسمه صقر رسمها أعلى كتفه الأيمن، كنَّا قد اشترينا أطباق حلويات شرقية من دكان "فلفله" فتناولناها أثناء انتظار جفاف الألوان.

اشترى لنا "عامر" بالونات ملوَّنةً، لكل واحدة عشرة بالونات، التقطنا مجموعة صور أمام مكتبة "دار الحكمة" والتقط الشباب مجموعة أخرى مع ثعبان أصفر كبير، نحن الفتيات التقطنا الصور مع بغبغان كبير زاهي الألوان أصفر وأحمر وأزرق وأخضر وبرتقالي، أضحكتنا كلماته المبعثرة كثيراً.

أكملنا الجولة بين حوانيت وادي النسناس، التجول بين الأروقة تبعث على الراحة والسرور، وقد أبهجتني هذه الجولة لأنها عامرة بكل ما يُبهج القلب والروح، فيها متعه للحواس بتعدد الروائح المنبعثة من الحانات والمتاجر والبوتيكات، ألوان متعددة نابضة بالحياة تسر العيون، السوق صاخب وفوضوي بعض الشيء، تصميم المعمار القديم يضفي قدسية خاصة على الوادي.

أخبرنا "وليد" أنها منطقة من البلد التحتي لجبل الكرمل يقطنها العرب يدلُّ على هذا التصميم العربي القديم للأبنية والمنازل، والتبسط في التعامل بين الجيران، أغلب المباني من الصخور المشكلة بطرق بديعة (الكحلي)، متهالكة ومهدمة القليل منها لا يزيد عن الطابق الثالث وأغلبها طابقين فقط، الطرق معبدة، ولكن من الجلي أن هذا كان منذ سنوات طوال، يبدو عليهم التمدن.

كانت تنتشر على طول الشارع طاولات تعرض ألعابًا للأطفال، وأخرى أطعمة ومعجنات وحلويات مغلفة، أعتقد أن "تينا" زادت هذا اليوم خمسين رطلًا على أقل تقدير، فلقد اشترت من كل ما نمرُّ عليه، متعللة أنها تحب أن تتذوق كل ما هو جديد وغريب، صحن "كبّة" مقلية ومحشية باللحم، طبق "نيروستا" مزين بشرائح ليمون، معجنات تركية وأكلات أسيوية عجيبة لم يتناولها غير "تينا"، وأكلات أخرى كثيرة نسيت أنواعها، كنا نجلس على الأرصفة لنرتاح ثم نستأنف الجولة.

كنا نشاهد أهالي الوادي وهم يشاهدون الأحداث عبر شرفات منازلهم، يلتقطون ويسجلون هذه البهجة السائرة على أرصفة

شوارعهم بجوَّلاتهم المحمولة، أعتقد أنهم سينشرونها على الانترنت لذا علىَّ توخي الحذر قليلًا فلا أريد مشاكل مع عائلتي.

السوق رغم ارتفاع الأسعار فيه يضم الشيء وعكسه، يحتوي على كل شيء: لعب أطفال، ملابس تناسب جميع الأعمار وأدوات منزلية متنوعة الخامات، توابل شرقية، فواكه وخضار، ورود، وعلى النقيض تمامًا هناك أيضًا لحوم وأسماك ذات روائح كريهة، اشتريت بُنًّا برازيليًّا مُحمَّصًا في نفس اليوم ومعبَّأ أمامنا عليه بعض البهارات لُتعطيه نكهة مميزة من دكان "بن حيفا".

ثم اشتريت "موزًا" تناولناه أثناء سيرنا، ومجموعه من الأعشاب الطبية والعطرية، لم أحب الازدحام والضوضاء خاصة مع فرق الكشافة التي تمر متتالية وهي ترفع علم الطائفة التي تنتمي إليها مع علم فلسطين، أو علم إسرائيل حسب الفريق، وكلهم يرتدون ملابس زاهية جميلة تناسب طفولتهم تتنوع ما بين الأبيض في الأحمر أو الأصفر في الأحمر أو البيج في البني.

عندما سمع "عامر" تذمري، أخبرني أن الجوَّ العام هادئٌ اليوم عن المعتاد عليه، فلم أتذمر أكثر بعدها، ثم مررنا على بناية مؤتمر العمال العرب، كنت أريد الدخول ولكن "إزيه" امتعض من الأمر وطلب أن نذهب لتناول الطعام في مطعم "فيكتور

الصياد" فأجل "وليد" الأمر قائلًا دعنا نتجول قليلًا ثم نذهب لتناول الطعام.

أخذنا "وليد" إلى ميني ماركت قريب لنشرب "الكولا" ولم يوافق على أن نشتري أو نتناول أي شيء آخر معلنًا عن مفاجأة قريبة ستسعدنا، كان "عامر" قد انفصل عن المجموعة لا أعلم أين ذهب.

سرنا مع "وليد" حتى وصلنا إلى منزل مكوَّن من ثلاثة طوابق مبني من الحجارة، نوافذه كبيرة بطراز قديم، ذو شرفات عبارة عن مسطَّح خارج عن المبنى، أمام باب النافذة ومحاط من الثلاث جوانب بالخشب كما سور صغير، رُفعت الشرفات كي لا تسقط بأخشاب لتدعيمها وتقويتها، لا أعرف كيف يقفون في شرفة مصممة هكذا؟!، يا للرعب.. الجميل أنهم يضعون على حواف السور الخشبي أصص من الورد والريحان بطريقة مبهجة، تنتشر روائحها الطيبة لتزرع الهدوء داخل الروح.

لمحت على الحائط المجاور للباب الرئيسي رسمًا جرافيتيًّا لغرفة معيشة عربية بملابس بدوية قديمة، دخلنا من باب صغير أمام المنزل لنعبر حديقة صغيرة استقبلنا فيها "عامر" ليخبرنا أن عائلته تدعونا للغذاء لديهم.

حاولت التملّص ولكن "إزيه" و"جوبيتا" انبريا ساخطين عليَّ قائلين "لا تعلمين ما ستخسرينه إذا انصرفت، ستأكلين ما لذ وطاب مما لم يخطر على بالك في يوم"، وسحبتني "تينا" من يدي لندخل خلف "وليد" و"عامر" بعد أن أخبرني "وليد" إنني إذا انصرفت سيعتبر والداه وعمه وزوجة عمه أم عامر الأمر إهانة كبيرة لا تغتفر..

لا يصح أن أدخل البيت ولا ألبيِّ دعوتهم للطعام، لا أرى الأمر بمنظورهم، لم أدعُ أشخاصًا لا أعرفهم في الأساس إلى منزلي؟! عرب غرباء..

لذا كنت مقتنعة أنه فخ لاختطافي، فكثيرًا ما قرأت في الصحف عن فتيات تستغلهم أفراد الحركات الرافضة لوجودنا يَوقعوا بالشباب الإسرائيلي الغر عن طريق دعوتهم للقاء في أي مكان منعزل بمسمى الحب، وعندما يصلون وعلى شفاهم ابتسامه النصر لنيل فتاة بكل بساطة عبر الإنترنت يكتشفون أنهن عربيات وأن هناك من يكمن له في الخفاء كي يقتله طعنًا بخنجره ثم يتركه كما القذارة ملقى على قارعه الطريق في أي مكان آخر.

رغم رعبي أن يحدث لي هكذا، إلا أنني لم أستطع التصرُّف فأنا في عرين الأسد والمنطقة كلها عربية..

وددت لـو أبكـي بـل أصـرخ بـصوت عـال فألفـت الانتبـاه وأهرب، حتى إن لم يكن فخًّا فكيف سأخبر والدي أنـني دخلـت بيتًا عربيًا؟ . .

آه لو عرفت ماما أنني سأتناول الطعـام معهـم، لا أسـتبعد أن تجبرني على شرب "فونيك" لتقتلني بيدي الآثمة هذه، وكما يقول العرب "بيدي لا بيـد عمـر" مـع أنـني لا أعـرف معناهـا، ليـتني أسـتطيع الهـرب الآن، والعـدو حتـى أصـل منزلـي، أن ألجـأ إلى أحضان حجرتي لأنعم بالأمان والسكينة، ما كل هذا الفـزع سـلَّم أيها الرب الرحيم.

* * *

٤- الفخ

منزل عائلة "عامر" مكونٌ من ثلاثة طوابق كان قد أخبرني سابقًا أن الأسرة تتجمع في الدور الأول، والثاني تسكن فيه عائلته أختاه الأصغر "حسناء وصفاء" ووالداه، أما أخواه الأكبر منه فمتزوجان ويسكنان منزلين بالإيجار بالقرب منهم، يأتيان بعد العمل كل يوم للاطمئنان على العائلة ثم العودة إلى منزليهما.

أما الطابق الثالث فيسكنه "وليد" وعائلته الوالدان وثلاث أخوات أكبر منه, اثنتان متزوجتان في "وادي الحليصه" وأخت أخرى في "طمره" وأختان أصغر منه, في المرحلة الثانوية "زينب وفاطمة" وفي النهاية أخوان أصغر منه "حسان" في الصف الثالث من التعليم الأساسي و"غسان" مازال دون الخامسة هو آخر العنقود كما يسميه.

كثيرًا ما وددت إخباره أنَّ على والديّ "وليد" أن يكفا عن الإنجاب، ما كل هؤلاء الأولاد!!، لكنني دومًا أفضل الصمت، خاصة بعدما عرفت أن الفلسطينيين يعشقون كثرة الأولاد ويتباهون بأنهم كما يدعون يملكون شهداء الغد، ومن أبنائهم من سيحرر الأرض منا، أكثر ما شعرت به بعد مقابلة العائلة مشاعر

الخوف والقلق من والد "وليد"، ربما عليَّ الحذر من "وليد" أيضًا فبالتأكيد هو على شاكلة والده، تبدو عليهما ملامح القسوة كما لو كانا ينتميان لهؤلاء المخربين القتلة، ممن يقنصون شجعاننا بدم بارد.

في المدخل جلسة عربية تبدو جميلة، استقبلنا الجميع ورحبوا بنا ثم ذهبت الأمهات مع البنات وبقينا مع رجال العائلة (الوالد والعم والأطفال الصغار بالإضافة إلى "عامر ووليد"، حاولت التقاط كل ما يحيط بي زخرفة المنزل عربية، وحتى المفروشات، ولكن الجميع يرتدي ملابس حديثة تبدو ماركة أيضًا يبدو حالهم ميسوراً، أخبرني العم أن والد "عامر" أصغر منه، ويعمل في شركة الكهرباء ووالدته ربة منزل كما زوجته، أما هو فيعمل في جمرك الميناء.

لأنه كبير العائلة فلقد توسط لابني أخيه ليعملا هناك بعد حصولهما على الشهادة المتوسطة، هنا شعرت باضطراب تنفسي هل يكمل القدر لعبته لأجدهما يعملان لدى أخي؟!.

ركزت نظري عليه وهو يرتشف الشاي على مهل، لعله يُنهي جملته، عقلي يصرخ هيا أكمل، لكنه لم يسمعني؛ تابع شرب الشاي بهدوء، معلقًا على ذلك "الشاي الساخن مفيد للقلب"،

هيا يا رجل سيتوقف قلبي بسببك، وأخيرًا فرغ من الشاي المشؤوم وأكمل إنهما يعملان في شركة تفريغ فاستراح قلبي وهدأت روحي المضطربة قليلًا، قررت أنه إذا خرجت من هنا على قيد الحياة لن أخبر أحدًا؛ ولن أسمح لأيٍّ كان أن يفشي سري لأخي أو لعائلتي، ولن أكرر هذا الرعب ثانية.

ظننت أنهم سيقسموننا مجموعتين، النساء في اتجاه والرجال في الآخر كما أسمع عنهم، لكنهم فاجئوني عندما قال العم "حسان" إنهم عائلة "مودرن" وسنجلس على طاولة واحدة، وأضاف إنهم أخروا الغداء لانتظارنا، وأن علينا في المرات القادمة أن نأتي قبل أذان العصر، سيكون حينها الطعام أشهى وأسهل في الهضم، لم أدرِ كيف نطقت "هل هناك مرات أخرى؟!" يبدو أن مظاهر الذعر متجلية بوضوح على وجهي، فلقد ضحك الجميع بعد صمت فجأة ليقول والد "عامر":

ـ صَدَق من قال "لا صديق ليهودي" لم أنتِ مرعوبة هكذا هل نحن أول عائلة عربية تدخلين منزلها؟!.

ـ بل أوَّلَ أشخاص عرب أحدثهم في الأساس.

ـ لهذا يبدو وجهكِ أصفر، أتظنين أننا فعلنا كل هذا لاختطافكِ، "يا عيبَ الشوم"، لا تقلقي بنيتي لسنا من

نغدر بمن أمننا، هيا لنتناول الطعام وسيعيدكِ "عامر" لمنزلك بأمان.

كنت أودَ لو أضيف؛ هكذا قال الذئب قبل أن يحاول الهجوم على ليلى في الغابة، ولكنني كعادتي فضلت الصمت، نادت علينا أم "عامر" وجاءت لتصطحبنا فذهبنا معها وجلسنا على الطاولة لأجد مائدة لم أرَ مثلها في حياتي، هي هبةٌ من الرب نزلت خطأً بالتأكيد على هذا المنزل العربي، بدأ "عامر" شرح ما يتربع أمامي من أصناف شهية ذات رائحة نفاذه لطهيها بالثوم والبهارات والتوابل الحريفة العربية، فهذه سلطات باذنجان وطحينة وسلطة خضراء وهذا خبز صنع والدته وهذا أرز بالخلطة، أما أطباق اللحوم فقال إنها من لحم ضأن.

تخيلوا فتاة تتناول طيلة حياتها الطعام الصحي فقط وفجأة تجد هذه المائدة أمامها، تفوح بروائح لذيذة تشهي النفس، شعرت كما لو أنني انتقلت لملكوت الرب ولا أعلم، عندما سألته عن أسماء أصناف اللحم أجاب وسط ضحك ومزح غلَّف أغلب كلماته، يعرفني بعدما رأي أنني لا أحاول إلهاءه عن تناول الطعام ولاحظ عيني الزائغتين دون استقرار، هذا كباب مكون من لحم ضأن على الفحم.

هذا مسخن وهو عبارة عن دجاج تمَّ طهيه في الفـرن مـع الخبـز والبصل وزيت الزيتون بالإضافة إلى التوابل، وتلك مقلوبة مكونـه من طبقات من الأرز واللحم والخضار المسلوق وهي عشقي لـذا إذا لم تعجبكِ سأبتهج كثيراً لأنني سأتناول الطبق كلّه.

تبرمتَ والدته لكنها صمتت عندما أضاف إنه يمزح فقط، هـذا الطبق على يمينك "محشي" وهو مكون من أشياء عـدة وهـو نفـسه عدة أصناف، ملفوف وورق عنب وكوسـا وباذنجـان تم حـشوهم بخلطة من الأرز والتوابل والبهارات والخضرة مع خلطة لحم أُنـضج على النار مع بصل محمَّرٍ في الزيت وتوابل وبهارات.

أعتقد أن هذا اليوم عيد، لذا جهـزت نـساء العائلـة كـل هـذه المائـدة، فأخبرتـه أن "كـيتي" والـدتي لـو شـاهدت هـذه المائـدة لأصابها الإغماء، وإذا علمت أنني أكلـت منهـا ستـصطحبني إلى أقـرب مـشفى لتغـسل معـدتي، فهـي لا تعـترف إلا بـالأكلات الصحية.

قامت الروائح وأشكال المأكولات بفعلـها وخـدرتني لأتنـاول من كل ما يقع تحت يدي، مما زاد من تفاخر "عامر" وهـو يـضيف عندما ننتهي في انتظارنا تشكيلة رائعة من الحلويـات، كنافـة وهـي عبارة عن جبنه بيضاء يصنعها جار لنا في منزله، توضع وسط طبقة

من دقيق السميد، وهو قمح مطحون مع قليل من عصير البرتقال، ليأخذ لونًا برتقاليًّا جميلًا وعلى الوجه يُرش قَطْرًا محليًا، هو شيء يصنع مثل العسل، أيضًا بقلاوة هذه صنع زوجة عمي، تصنعها كما أفخر المحلات، وهي طبقات من عجينة خاصة مع فستق ومكسرات وأيضا تحلى بالقَطْر.

سرحت مع أفكاري، لماذا لا يخبرنا باسمها ويكتفي بنسبتها إلى زوجها؟!، أعتقد أن ماما ستتبرأ مني بكل بساطة بعد كل هذا، نظرت لباقي المجموعة فوجدتهم يأكلون بشهية كبيرة فاستعنت بشداي[1] وأكملت الأكل مطمئنة لوجود "إزيه" معنا على الأقل.

عندما فرغنا ورغم مشاعر التوجس في قلبي طيلة الوقت، إلا أنني فوجئت أنها الحادية عشر مساءً، عندها فزعت وهببت واقفة تاركة مقعدي، ضحك عم "عامر" وقال له هيَّا ارحم صديقتك من القلق وأوصلها، وسيتولى "وليد" إيصال "تينا" وصديقنا "إزيه" عليك إيصال قريبتك "جوبيتا" فأجابه ضاحكًا "حسنًا يا عم "حسان" هي في الأساس تقطن نفس المبنى معي في المزرعة".

(١) يهوه- إيل- إلوهيم- أدوناي

طلب "إزيه" علبته من مأكولات والدته، فأجابه "وليد" إذا صبر القاتل على المقتول، وذهب إلى والدته وأحضر أربع علب، منح كل منهم علبةً ومد يده بالرابعة إليَّ فأبيت، حاول إقناعي فاضطررت لمصارحتهم أن "كيتي" ستقتلني إذا رأتها.

همت "تينا" بقول شيء لكن "إزيه" أخذها سريعًا وهو يضحك قائلًا: "إذًا هي حقي أنا، سآخذها قبل أن تطمع فيها "تينا"، تمشينا قليلًا عبر الشوارع، ثم فضلت إيقاف سيارة مؤجرة ودعت الجميع ثم انطلقت السيارة أخيراً.

هكذا انتهى اليوم بسلام عندما وجدتني في أحضان سريري أخيراً، ولم تقابلني ماما بوابل من الأسئلة كعادتها، من حسن حظي أنني أخبرتها أننا سنتأخر عندما طلبت الإذن للانضمام إلى أصدقائي في هذه الجولة بعد حضور المحاضرات، إذًا علمت أنني لم أذهب إلى الجامعة بالتأكيد سأتعرض لعقاب شديد.

في اليوم التالي لم أذهب إلى الجامعة، وفضلت النوم، استيقظت في الثالثة مساء، اليوم عاقبتني والدتي على ذلك بالذهاب معها إلى الجيمانيزيوم رغم أن موعدي الاثنين والخميس وليس الثلاثاء، لكنني لم أستطع التذمر، لذا عندما تجولنا في اليوم التالي مرة ثانية في وادي النسناس لمشاهدة الاحتفالات لم أخبرها

وتركتها تتوهم أنني في الجامعة ولكنني اتصلت بها الساعة العاشرة لأخبرها بأن لديَّ محاضرات حتى الساعة الثامنة بشكل مؤقت وسأتأخر؛ فلم تعترض.

بعدها بساعة وجدتها تتجول مع صديقاتها أمام مكتبة "دار الحكمة" فزعت وحاولت الاختباء عندما علم الجميع ما يفزعني تخفوا معي حتى وصلنا إلى منزل "عامر" قضينا اليوم معهم واستغلَّ والد "وليد" الأمر ليقصَّ علينا تاريخ الوادي وكيف أنه في البداية كان واديًا للنسانيس، تتنقل فيه بحرية وانطلاق، لكن البشر كعادتهم يهوون احتلال ما ليس لهم.

بدءوا يزحفون عليه حتى صار واديًا سكنيًا يقطنه الآلاف الآن، خاصة بعد عمليات التهجير الموسعة من جانب الاحتلال، فأحاطونا فيه ومنعوا الخروج أو الانتقال، ثم تحوَّل من وادٍ ممتلئ بالخضرة والطبيعة الخلابة إلى مجرد مبانٍ قديمة يرفض الاحتلال حتى تجديد المعرَّض للسقوط والدمار منها، هناك مقولة أخرى أنه سُمي كذلك بسبب لقب أحد العائلات العربية الكبيرة التي كانت تسكنه.

أكمل كلامه عن جده، وكيف ذهب بالقطار فيما كان يسمى قديمًا "خط السكة الحديد الحجازي" في المحطة الشرقية في حيفا إلى

الحج، أخبرنا أنه أحيانًا كان يهرب مع أخيه دون علم والده؛ ويذهبان إلى مدينه "طبرية" يستمتعون بزرقة مائها الصافي، ونسيمها الدافئ المنعش ربيعًا وشتاءاً، هي درة تتألق ببهاء ساعة المغيب، ثم يعودون مرة أخرى بالقطار إلى حيفا، وسألنا إن كنا زرنا حمامات طبرية المعدنية، فأجبنا بالصمت وهز الرؤوس نفيًا، فاستعرض معلوماته قائلًا..

نهر الأردن وهو بالمناسبة ما تعمد المسيح بمياهه، يجتاز منطقة كانت قديمًا مستنقعات ثم يشكل بحيرة الحولة ثم بحيرة طبرية وينتهي في البحر الميت، بحيرة طبرية تطل من الشرق على جبال الجولان السورية ومن الغرب على جبال الناصرة، في السفح الشرقي المُطل على مدينة طبرية أقيمت الحمامات على نبعٍ حارٍ غزير مالح، مشهورة عالميًا في المداواة من الأمراض الجلدية والروماتيزمية وأمراضٍ أخرى كثيرة، وعلى التلال الجنوبية تنمو العديد من أشجار ما بينٍ التين والزيتون والنخيل والرُمان، هي أحد الفراديس على الأرض.

ثم عاد لذكرياته عن ٤٨ وما حدث فيه، حاولت قطع حديثه المسهب على ظلمنا نحن اليهود أحباء الرب ضد الإنسانية المعذبة متمثلة فيه هو وإخوانه من البدو، سألته:

ـ هل يمكنني مشاهدة أدوات صنع القهوة العربية؟!

لماذا نظر إلي نظرة كلها لؤم ودهاء؟!، لم أهتم فعلى الأقل لست ماكرة لئيمة مثله أغالط في التاريخ، لا أنسب لأجدادي أفضالًا ليست لهم، أخبر "وليد" أن يحضر أدوات القهوة العربية، عاد بعد خمس دقائق، مجرد "كنكه" مع مشعل صغير عرفت أنه مليء بسائل "السبرتو" وخلال دقائق بدأ في صنع القهوة لنا جميعًا قائلًا إنه سيضيفنا وسنتذوق أطعم قهوة عربية من يده هو، وكالعادة..

بدأ من جديد في قص مجموعة من القصص عن تاريخ فلسطين المزعومة استمعنا جميعًا في هدوء إلا "إزيه" الذي كان يقاطعه كثيراً ليخبره بعض الحقائق عما يسرد علينا من بطولة العرب المزعومة؛ لكنه تقبل الأمر بصدر رحب، ولم يكن يعقب عليه، حتى أخبره "إزيه" بمدى تجنيه علينا وعلى ساستنا، فعليه أن يقارن بين دولتنا الواقعة تحت الحكم الإسرائيلي وبين البلاد العربية ليدرك حجم الفجوة والمأساة، فشتَّان بين ديمقراطيتنا وبين الدكتاتورية والبيروقراطية المتكالبة على كل أجهزة هذه الدول، ثم عليه أن يقارن بين حال المناطق الواقعة تحت سيطرة عربية هنا في دولتنا

الصغيرة؛ بحال عرب الداخل وكيف يستمتعون بالحياة في ظل ديمقراطية حقة!!.

هنا انبرى العم غاضبًا مدافعًا عما يُسرد من مهاترات وأكاذيب كما سمَّاها..

ـ كيف تتحدث عن عرب الداخل، عنا نحن عرب ٤٨ هكذا كما لو كنا خونةً وبعنا القضية، لقد ناضلْنا وحاربنا ببسالة ولازلنا, فلا يغرنكم هدوءنا ومسالمتنا الحالية؛ فبعد الصمت فيضان جارف سيحرق كل ما يحاولون تهويده، ألم يُدرِّسوا لك كيف ثُرنا على تعسف الحكومة عندما صادرت مئات ومئات الدونمات من أراضينا نحن عرب الداخل بمبررات واهية في ٣٠ آذار "مارس" عام ١٩٧٦، لازالت ذكرى هذه الأيام تتنفس فينا كل عام في ذكري الأرض، لم نتخَّل عن الأرض كما يظن بنا كثيرون، لم نبع كما كثيرون، أو نرضخ للتهديدات، واصلنا الحياة على هذه الأرض رغم تجبر جدودك معنا لإثبات أحقيتنا في هذه الأرض، ورغم خداعكم المبتذل للجميع حتى أنفسكم..

ـ بل تعلمون أنها أرضنا، ملكوتنا الموروث بوعد الرب، حتى الأشجار تشهد لنا كما شجرة "أم خالد"[1] وشجر السنديان واللوز أنتم أضعف من المقاومة ولا سبيل لطردنا ممَّا وعدنا الرب بتملكه.

ـ الآن تحكم علينا بالخنوع وتقبل وجودكم ببساطة، أعلم أن ساستك ارتاحوا بعد نضالنا المسلح لسنوات، فقد مات أغلب الجيل الأول، الرعيل الأول للنضال الحق، انظر حولك ماذا حدث؟!، يبدو عليك الذكاء أعلم أنك تدرك أبعاد الموقف جيداً ولست كما صديقاتك الناظرات ببؤس وسذاجة، تعلم مثلي جيداً أن ساستك، هؤلاء الخنازير يحاولون سحب الجيل الجديد من المنتمين لعرب ٤٨ إليهم بوعود واهية، بمحاولة تهويدهم، ربما علينا الصراخ في وجوه ساستك بقوة أكبر قائلين:

يا بن العم أعد إلىَّ بيتي، أزل مستوطناتك التي اغتصبت أرضي، ثم تعال لنتبادل أطراف الحديث عما ننفذه للعيش معًا في هدوء وسلام، لا تطلبوا مني تطبيعًا وأمْنًا قبل أن تمنحونا حقوقنا

(١) شجر الجميز، وهذه الأشجار الثلاث يبلغ عمر الواحدة ٥٠٠ عام وأكثر، وتحتفل إسرائيل بعيد غرس الأشجار في ١٥ شباط/ فبراير من كل عام، وهي الدولة الوحيدة التي يفوق عدد الأشجار فيها ٢٤٠ مليون شجرة.

كاملة، كيف نتبادل السلام وأنتم تضعوننا أسفل أحذيتكم، نحن أمامكم في موقف ضعيف متخاذل؛ تستغِّلون حاجتنا في إذلالنا، تشوِّهون كرامتنا بسبب ما تزرعونه من شكوك حول انتمائنا أمام باقي العرب وتنتظرون أن نساندكم، لن نخضع لساستك "إزيه" ثم نفيق لنجد ظهورنا مسندة على حائط آيل للسقوط، أيدينا مقيدة، أفواهنا مكممة، لا استفدنا بالجلوس إلى مائدة المفاوضات معكم إعادة حق أبنائنا، ولا لدينا صلاحية الانضمام إلى إخواننا المناضلين في محاربة ظلمنا، يكبلوننا أمام العالم بمعاهدات معيبة، واتفاقات أقل توصيف لها أنها مجرد خدع يغشوننا بها، ثم يصرخون غضبًا فكيف لم تنطَلِ خدعتهم علينا؟!

ـ يسرني أن الجيل الجديد منكم لا يفكر بطريقتك هذه، وأيديهم ممتدة للسلام وللتعلم واكتساب الخبرة والمعارف في شتى المجالات.

ـ لك كل الحق في قول ذلك، فلقد أتاح الاختلاط بكم في المدارس وزرع الثقافة الإسرائيلية منذ الصغر داخل عقول أطفالنا برمجة عقول الكثيرٍ منهم، لتقبل فكرة أو إمكانية تحقيق الأمن على الأرض عن طريق مبادلة أمنهم على هذه الأرض بالسلام، يعتقدون أن هناك فرصة لاستعادة الحقوق

بالسياسة، لا يستوعبون أن من تتقبل نفسيته وروحه قتل غيره ببساطة لا يفكر بهذه الطريقة.

انظر إلى "وليد" و"عامر" هما من هؤلاء المؤمنين بالسلام وبأن الحب والمعاملة الحسنة ستُعيد ما سلب منا، مقتنعان أن علينا تقبل وجودكم لتتقبلوا وجودنا، لا يدركان أنه لا مجال لاستعادة ما استوطنتموه كما يصرح كبيركم "نتنياهو" دوما، أو علينا كما نادي "شيمون بيريز" أن نترك الكعبة ونتوجه إلى بيت المقدس كقبلة للأديان الثلاثة؛ أن يكون صيام يوم عاشوراء بديلًا عن صيام شهر رمضان، وكأنما هكذا ستحل الأزمة، حاولتم إقناع الجيل الجديد أن المقابل لرفض السلام هو الفوضى التي لا يقبل بها الجميع، رفضتم وجودنا ككل، حوَّلتم الأمر لمجرد حفنه من الغوغاء لا حق لها إلا زيارة المقدسات العربية، ثم التبخر بعيدًا عن مجال رؤيتكم.

ـ لا يتواجد العرب في مكان إلا ودمَّروه كل ما تلمسونه تحولونه إلى خراب، ألا ترى ما يفعله سكان غزة أو هؤلاء المتشددين في الضفة والخليل، انظر إلى أورشاليم القدس وكيف هي جنة على الأرض بفضلنا؟! نحن رقم ١١ عالميًا

حسب منتدى دافوس في مؤشـرات الـسعادة بفـضل جهـود حكومتنا التي تنكرها أنتَ.

ـ أية سعادة هذه؟!، ثم إن هذا ما حاول ساستك زرعه بالزور عن السلام المزعوم، تدعون أن مناطق غزة والضفة والخليـل هم من يمارسون الشغب لإثارة القلـق في الـبلاد، وينغـصون على الشعب حياته اليومية، ينـسفون بيـوتهم ثـم يرقـصون على الأطلال باكين غباء أصحابها، يغري ساستك أطفالنـا بالعسل المشبع بالسم، بوعود براقة كما الزبد يـسيل بطلـوع الـشمس عليـه صـباحًا.. يـصرخون سـنمنحكم حقوقًـا وامتيازات إضافيةً فقـط إذا قبلـتم بهويـة إسـرائيلية وتـأقلم فعلي، علَيكم تشذيب هويتكم العربية وارتـداء مـا يجعلكـم مؤهلين للحياة في عالم إسرائيل الرَّحَب، يحـاولون جعلـهم أشباهً ليهود الغرب، أفعال.. تصرفات.. أخلاق، وحتى أسلوب حياة اجتماعية.

وضعتمونا نحن عرب ٤٨ بين فكيَّ المطرقـة والـسِّندان، صـار علينا إذا أردْنا الحيـاة بإنـسانية أن نتجـنس بفكـرٍ إسـرائيلي بحـتْ، اعتناق أسلوبكم في الاحتفـال، والحـزن وحتـى التهـريج وتعـاطي متطلباتنا الشخصية من ملـبس ومأكـل وتفكـير، سـحرتم الأبنـاء

بنمط حياة مُتفسِّخة الأركان كي يـتم قبـولهم في هـذا المجتمـع ؛ لا أنكر أن الحياة تُغري وهم صغار يريدون نهل بَعْضَ متعها ، داعبـتم أعينهم وأعين كل العالم بالموبقـات ، زينـتم لهـم بحـار الانحـلال ، فضاعت هيبة الدين ؛ فهان عليهم الوطن .

وقع بعضهم تحت نير لذة مؤقتة واتبع سـبيلكم للأسـف رغـم مظاهر المعارضة لحفظ مـاء الوجـه ، ورغـم احتفـاظ الكـثير مـنهم بعروبتهم وإصرارهم على أنه عربي أصيل ومالك الأرض الأصلي وعلى الحكومة والسياسيين الحذر من إغضابهم ، إلا أنهم يـدخلون في مفاوضات وهم في موقف ضـعف ، يحـاولون نيـل أقـل القليـل والذي لا يتأتَّى لهم في النهاية الحصول عليه إلا باستخدام الـضغوط الإعلامية وأحيانًـا المظـاهرات أو إثـارة المـشاكل داخـل الكنيـست بواسطة ممثلينا من النواب العرب .

ـ عرب الداخل لهم رأي وكلمة مسموعة ومؤثرة في القـرارات السياسية للدولة ، لا يمكنك إنكار هذا أبدا؟ !

ـ أحيانًا . . أحيانًا "إزيه" تخضع الحكومة لضغوطهم وأحيانًـا أخرى تمارس معهم لعبـة الإلهـاء ؛ صـحيح أنـا مـن عـرب الداخل ، عرب ٤٨ لكنني لـست مُؤمنًـا بـالحلول الـسياسية الخانعة هذه ، فكل ما يحـدث أنّهـم يـضحكون علـى شـيبتنا

ببضعه كلمات، خذ هذه مقابل أن أمنحك هـذا، مِّررْ هـذا القانون مقابل أن أمنحك حق ارتياد الأماكن المغلقـة لليهـود فقـط؛ بـشرط أن تكمـل معنـا علـى طريقتنـا نحـن، لغتـك الأساسية يجب أن تكون العبرية، مارس الحياة كما نريد نحن لا أنت، انظر حولك جيداً واحكم..

وكما قلت سابقًا لقد نجحت الحكومة في تحويل قطـاع غـزة إلى مستعمرة خاصة، يُقتل من فيها دون أن يجـدوا مـن يقـدم لهـم يـد العون، أصبحت الضفة والخليل وما حولهما منطقة ثانيـة، وكأنمـا هما بلد آخر لا ينتمـي لفلـسطين، وأخـيراً المنـاطق الواقعـة تحـت سيطرة الحكومة الإسرائيلية وهي كما ترى كقطعة من أوروبـا فيهـا الرفاهية شعار لإبراز ديمقراطية قـد تنفـي عـنهم صـفة الاحـتلال، حاول السياسيون تغير قناعاتهم وتبديل المـسميات ونجحـوا بنـسبة كبيرة.

ـ أنتم متباغـضون كـارهون لبعـضكم فـلا تُلقـي اللـوم علـى السياسة والحكومة الإسرائيلية.

ـ ربما أنت على صواب، خوَّننا العرب، ونحن عـرب الـداخل عذَّبَنا هذا واختصرنا بعد ذلك الأزمة في تخاذل الدول العربية عن نجدتنا!! لم نفكر ماذا بعد تخاذل العـرب وقـت الحاجـة

أول مرة؟ ماذا فعلنا نحن لأنفسنا؟، أين نحن من الأشقاء في التهجير والموت؟، وأين دعمنا لأشقائنا؟

أخبرني "إزيه" هل إتباعنا إياكم وانضمامنا إلى الكنيست أثبت صلاح فكرة السلام مقابل الأمن؟ هل أثمر عن نتائج تفيد الأرض العربية؟ لم يحدث!! لقد استضعفتمونا أكثر!! لماذا لم يحارب من اهتموا بالسياسة من عرب الداخل بتصعيد أفكارهم على الصعيد الدولي بقوة؟! على الأقل حينها ستظهر الحقيقة بجلاء، ويثبتون للجميع أن للكلمات الرنانة أثراً فعليًّا على أفعال الساسة والعسكريين الإسرائيليين؟، ربما اقتنع باقي العرب أننا لسنا بخونة للقضية، أرى ملامح الاعتراض!!

ـ لا تملكون أي دليل على ما تدَّعون، الأرض أرضنا بنصوص التوراة والتلمود سيدي، لا مجال للمراوغة هنا.

ـ هذا أدعى أن أسأل من أجده من الداعين لمفاوضات سلام، عما تفاوضون ومن تفاوضونهم يرفضون مجرد التفكير في إعادة شبر؟، كيف تناقشون من يعتبرون كل ما تلمسه أقدامهم حقًّا مكتسبًا وشرعيًّا؟، ماذا قدمتم لإخوانكم من المدافعين عن الأرض بدمائهم؟ هل أقنعتم الإسرائيليين الصهاينة بحقنا في هذه الأرض؟، كيف تتعاملون مع غيركم

من العرب على أنهم سبب نكستكم السياسية ببحثهم عن العنف لإثبات حقهم في الأرض، وقد فشلت كل طرقكم السلمية في إثبات حقنا؟ كيف نكون إخوة وأنتم ترونا سببًا للفوضى ومجرد حفنه من القتلة؟ لماذا لا تجيب إلّا بالصمت وكففت مناوشاتك الآن؟!

ـ إذن أنت موافق على القتل والطعن المنتشر الآن، ومع من يصرخون بقتل الأبرياء كي تظهروا في مظهر الأبطال؟، هل أنت موافق على هذه الممارسات اللاإنسانية؟ لم أعتقد أنك ستكون من الُمحرِّضين على قتل الأبرياء العُزَّل؟، لكن لماذا استغربُ وهذا هو عهدنا بكم دائمًا!!

ـ بالطبع لا أوافق على قتل الأبرياء، لست من يزين جدار منزله ومحل عمله بصور "باروخ جولد شتين" الذي قتل ثلاثين مُصليًّا في الحرم الإبراهيمي، لست مع "ايجال عامير" الذي قتل "رابين" لمجرد أنه جلس على مائدة مفاوضات عقيمة، لست مع من يوجه سلاحه أو سكينه إلى شخص أعزل، لكن ألا تلاحظ معي كمية العدائية المتأصلة في نفوسكم تجاهنا..

تبدؤون المناوشات ثم تغضبون عندما يثور البركان وينفجر فيكم، كم شاب قُتل لمجرد الاشتباه فيه؟ كم فتاة قُبرت عروسًا لأنها ترتدي زيًّا يسترً بدنها؟ كم وكم وهناك الكثير يا ولدي، لازلتَ صغيراً وسِّعْ مداركك لتستوعب الأمر، ويكون خلاص هذه النفوس المعذبة على يديك.

ـ لتعلم سيدي أن عرب الداخل بالنسبة لي رغم كلماتك هذه كلها ليسوا بإسرائيليين؛ هم مثلك يتمنون الخلاص منا، لكنكم لا تستطيعون التعايش معنا بسبب اختلافاتكم، دومًا متناحرين، كرهتم بعضكم البعض، فكيف تنتظر مني أن أحترم من لا يحترم أخاه؟، بل كيف أتقبل من يساومني على أرضي وحياتي؟

ـ من يستغل ومن يساوم يا ولدي؟، ثم لا كراهية في الموضوع، يومًا سيجتمع العرب جميعًا ونتفق، سنشدُّ على عَضُد بعضنا البعض، ونكون بنيانًا مرصوصًا يفرض الحق نبراسًا للجميع، ما بيننا من مشاحنات أنتم سببها، شاهد إعلامكم كيف صال وجال حول ديكتاتورية العرب وحكامهم ومازال يزرع الفتن بأكاذيبه..

تتغنون بحرية ينعمُ بها كل من يعيش داخل حدود أرض إسرائيل، لقد نجح إعلامكم بنسبة كبيرة في تحجيم ما يؤرِّقُ شباب الداخل الجديد في نقطة أن تعترف الحكومة بهم كشريك وطن، لقد نجحت الحكومة في إقناعهم بأنهم شركاء وأهل يمكنهم التعايش في وئام وسلام على هذه الأرض، أتعلم أن دستوركم المعيب وإمعانًا في إثارة مشاعر البغضاء، يسمح لعرب ٤٨ الانضمام تطوُّعًا للجيش، مقابل بعض الميزات عن غيرهم من المتمسكين بعروبتهم، تريدون منا قتل بعضنا البعض. .

ـ لا نجبر أيّ شخص، هم مقتنعون بالقضية.

ـ ادَّعي ما تريد كما تشاء؛ فمن العجيب فعلًا أن هناك فيالق كاملة من العرب انضموا بكامل إرادتهم يا رجل، الدروز مجبرون بحكم قانونكم على المشاركة، لكن كيف يذهب الآخرون بكامل إرادتهم؟، كلي ثقة أنه ذات يوم سيفيق كل المغيبين من آثار مخدركم الموضعي هذا، سيكتشفون زيف وحقارة أفعال ساستكم، أجبرتم الكثير على الانسلاخ من أصله، ثم ببساطة تدعي أنكم بلد الحرية والديمقراطية، قلَّبتمونا على بعضنا ثم تدَّعون البراءة!!

يومًا سننزع من قلوبنا أشواك فتنتكم، نُلقى بعيدًا نـاب الحقـد ومخلب الغل المغروسين داخل صدورنا، يومًا سنفجر سـلام الـردع والرعب خاصتكم، لنفرض سلام المحبة والخير، سلام الحق، لقـد غرتكم مظاهر المسالمة المتأصـلة فينـا وكُرْهِنـا للعنـف، لكـن يومًـا سنغرق هذه الـصهيونية في بحـار مـن زيـت مغلـي، ليـنعم العـالم بالراحة من شرور ساستك.

ـ هل نحـن مـن قلبنـاكم علـى بعـضكم؟ أم أنكـم في الأصـل ضعفاء؟ شاهد أنت سيدي ما حولك وقـارن بـين إسـرائيل وبلاد إخوتك من العرب لتدرك حجم الكارثة الحقيقية الـتي نعاني منها، لـولا ساسـتنا هـؤلاء لكنـا نخـوض في بحـار دم بسبب أفكاركم العتيقة وأفعالكم الشاذة، لكن نحـن اليهـود لدينا من الذكاء ما أهلَّنا لنكون أبناء الرب المختـارين، نحـن القوة الخفية على عرش الأرض بدهائنا وقـوة إرادتنـا، نحـن أسياد العالم.

صدم والد "وليد" مـن حـديث "إزيـه"، فحـاول "عـامر" تلطيف الأجواء بعرض لمشاهدة السماء من أعلى منزلهم، صـمت "إزيه" قليلًا، همَّ واقفًا طالبًـا الانـصراف، انطلـق فجـأة صـوت والدة "وليد" معلنةً عن تجهيز العشاء، وأشار لنـا العـم بالـذهاب

قائلًا: "واجب الضيافة أولًا قبل الانصراف سيد "إزيه" لسنا مثلكم" . .

انطلقنا في صمت خلف "وليد"، تناولنا في هدوء ما يُسمى حرفيًا ما لذَّ وطاب، فالمائدة كالعادة عامرة ذكرتني بموائد السلاطين والملوك في الأساطير، كان لـ "تينا" نصيب الأسد، لتبتهج معلقة على كمية الطعام الموضوع أمامها بأنها تشعر في هذا البيت بكمِّ الكرم الحاتمي، قررت أن أسالها فيما بعد عن هذا الحاتمي.

قطعًا لمملكة الصمت التي نصبت شباكها فوق رؤوسنا، قلت سمعت أن سوق "شوك ها بيشبيشيم"[1] في يافا، مشهور بالفضيات النادرة، ونحاسيات أنيقة عريقة، وجواهر، ومنمنمات غالية قديمة وسجاد فارسي ثمين، علاوة على قطع نادرة جلبها اليهود من شتى أنحاء العالم، ويوجد أوان وقدور ومعدات مطبخيه منوعة ستعجبك "تينا" بالتأكيد، هز الجميع رؤوسهم بهدوء لم أفهم ماذا يعنون!، فأكملت؛ يمكننا زيارته ونختتم الزيارة بجولة في أنحاء يافا، ولن ننسى الطعام الشهي لزوم إرضاء

(١) سوق البراغيث

معدة "تينا"، هنا فقط وجدت داعمًا للفكرة لينطلق صخبها مشجعة الجميع على الذهاب.

بعدما فرغنا من تناول العشاء، استأذَّنا في الانصراف، سرت بجوار "إزيه" لأستغل الفرصة لتبادل الحديث معه، سألته لماذا تصادقهما طالما أنتَ غير متوافق نفسيًا مع العرب كمجمل؟! كيف تتناول الطعام لديهم ألا تخشى أن يقتلوك؟!

ضحك بطريقة هستيرية ونادى على "جوبيتا" و"تينا" ليعيد حديثي عليهما، نظرا بسذاجة إلىَّ ثم ابتسما ببساطة، غرق الجميع في نوبة ضحك غير مبررة بالنسبة لي..

ـ حسنًا "تويف" سأريح عقلك الجميل هذا، صحيح أنني لا أحب العرب، وصحيح أنني أتمنى هلاكهم جميعًا، لكنني أعلم أن هذه الأرض أرضي، وهم مجرَّد خدَّام عليها، خلقهم الرب لمساعدتنا في إدارة شؤون الحياة المختلفة، ثم لا تخافي على حياتك لن يستطيعوا إيذاءنا، يدركون فداحة الإقدام على هذا الأمر ولو بمجرد التفكير.

ـ كيف يكون تفكيرك بهذه العدائية وتصادقهما وتذهب إلى منزلهم ببساطة؟! في الحقيقة مصدومة منك جدًا "إزيه"؟ أنت شخص متلوِّنً كما يبدو!!

ـ لا يا حبيبتي لست بمتلوِّنٍ، هذه المرَّة الثانية التي أرى فيها العم "حسان"، لم نكنْ نقابله في السابق، لقد سمعت أنه طُرد من عمله لإثارته المتاعب والمشاكل لصاحب العمل، يبدو أنه يحاول ممارسة بطولته الزائفة علينا الآن، هم أولًا وأخيرًا خَدَمٌ عليهم الركوع والتذلل بمسح أحذيتنا، على العموم لن نذهب إليهم ثانية؛ فلا داعي لخسارة فئة قد تفيدنا مُستقبلًا بسبب صلف وتحجر أفكار أبائهم المتعنتين، يتنطعون بجهل، ويحيكون الخرافات ثم يسكرون من خمرها ويصدِّقُونها، هؤلاء المحمديون يعيشون الوهم، تخيلي إذا احتلوا إسرائيل أرض العسل واللبن السماوي ماذا سيحدث؟

ـ لا يمكنني تصور كارثة كهذه!!

ـ سيحيلونها في غضون سنوات قليلة بل في خلال شهور إلى صحراء خربة كما سائر دولهم العربية، يومًا سأجعل كل هؤلاء المخرِّفين يدفعون ثمن ما ينشرونه عنا من افتراءات؟، أتتفقين معي جميلتي!!

ـ اسمي "تويف" . . "تويف" يا "إزيه"!!

ـ "تويييف" اسمها "تويف" يا أصدقاء لا تنسوا . .

غرق الجميع في الضحك مرة أخرى، ما هذه السخافة؟ يثيرون أعصابي ويضحكون بحمق، تركتهم وانطلقت مسرعة، لكنهم لحقوا بي وطلبت "تينا" من "إزيه" أن يعتذر، فركع بطريقة سينمائية هزلية وسحب يدي ليقبلها قائلًا:

تقبلي اعتذاري مولاتي الملكة..

إحقاقًا للحق، صدمني فعله، فلم يبدر مني أيّ ردّ فعل، سمرْت مكاني لدقائق، ثم تحركت بعيدًا مُخبرةً إياه أن الأمر لم يكن يستحق كل هذا، انتهت الليلة بخيرها وشرها، وعاد كلٌّ منَّا إلى منزله وفيه ما فيه من أفكار ونزاعات بعد حكايات العم "حسان"، علىَّ البدء في البحث والتقصي خلف الوقائع لأجد ما أُفحمه به في المرات التالية، لن أصمت في مواجهة اتهاماته السمجة السخيفة مرة ثانية.

* * *

5- جولة فى إسرائيل

مملكة الرب، أرض إسرائيل، فلسطين كما يُسميها العرب، جنَّة الرَّب على أرض الديمومة . .

يدعون أن الهند وريثة فردوس الرب، بالتأكيد لم يشاهدوا أرضنا الغالية، إرثنا الممنوح من الرب يهوه لأبنائه الأخيار المختارين والمفضلين عن سائر البشر .

كل يوم يزداد فخري بأنني إحدى بنات هذه الأرض الخيرة، فبعد الجولة الفائتة؛ سافرت مع "إزيه" و"جوبيتا" الأسبوع التالي إلى "بيت شعاريم" . .

مدينة الأموات الوطنية الإسرائيلية في الجليل، كان السفر متعبًا بسبب الحواجز الأمنية المنتشرة على المعابر، ولكن مر الأمر بسلام أخبرنا "إزيه" إن بلدة بيت شعاريم كانت مركز اليهودية في العهد الروماني، لأنها مقر مجلس "السنهدرين"[1] .

(١) ذكر موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية: على لسان الدكتورة داليت أطرقجي السكرتيرة العامة للجنة اليونسكو الإسرائيلية: "إسرائيل ضمت توقيعها إلى ميثاق التراث العالمي لليونسكو سنة ١٩٩٩، فأعلن عن ثمانية مواقع للتراث العالمي، منها المدينة البيضاء في تل أفيف، والبلدة القديمة لمدينة عكا، والحدائق البهائية في مدينتي حيفا وعكا، ومواقع تديرها سلطة الطبيعة والحدائق وهي مسادا والتلال التوراتية وكهوف بيت جبرين مريشة، وبيت شعاريم"، كانت بلدة بيت شعاريم القديمة تعتبر في عهد الرومان مركزا يهوديا هاما لأنها مقر مجلس "السنهدرين" وهو أعلى مؤسسة قضائية وإفتائية للشعب اليهودي، تمكن على أرضها الزعيم الروحي الكبير في ذلك العهد "يهودا هناسي" من استئناف الحضور اليهودي ـــ

التقطنا بعض الصور أمام الأعمال الفنية الموجودة، كان الجو شَتَوِيًّا لكنه خفيف النسمات، والسماء مليئة بسحب تميل للون الرمادي بما يُنبئ بهطول المطر قريبًا.

كانت السماء كما جلد نمر خليطًا بين الأبيض وقطعًا ملونَّةً بالرمادي ما بين فاتح وغامق، لكننا عدنا قبل أن تبدأ السماء معركتها مع الأرض وتغرقها بالمطر.

بعد أسبوع كانت أجمل جولة، ذهبت كل المجموعة في رحلة إلى حدائق البهائية التراثية، وهناك يوجد ضريح الباب المحاط بحدائق جميلة تحتل المنحدر الجبلي، مما يجتذب أعدادًا كثيرة من السياح، ويعتبر مصدر دخل مهم لدولة إسرائيل، هو مزار ديني ولكن مسموح للجميع بالتنزه فيه.

في منطقة الجليل بعد ثورة بار كوخبا، (١٣٢-١٣٥ قبل الميلاد) وتأليف أول مجموعة من الشرائع اليهودية الكتابية، "المشنة". وبعد دفنه في مقبرة بيت شعاريم أصبح العديد من يهود إسرائيل والشتات يحرصون على دفنهم في تلك المقبرة، إيمانا منهم بأنه سيزيد من احتمال ارتقائهم إلى الجنة، وهكذا أصبحت بمثابة مدينة أموات تتمتع بقيمة على مستوى العالم، حيث تضم ثلاثين منظومة مدافن متشعبة من صنع البشر.

تشتمل المقبرة على تشكيلة من أساليب الدفن المعمارية الفنية الرومانية القديمة الشرقية والفن الشعبي ومئات الكتابات بأربع لغات، العبرية واليونانية والآرامية والتدمرية، وتوصلت مؤسسة "إيكوموس" العالمية بعد دراستها للموقع إلى أن القيمة العالمية المتميزة لمقبرة بيت شعاريم أمر لا يحتاج إلى المزيد من الأدلة والقرائن، وذلك بفضل التشكيلة الفنية المعبرة عن طبيعة دينية في العالم القديم، وفي عصر هام من تاريخ الشعب اليهودي.

كانت الزهور والنباتات بفعل سقوط المطر صباح اليوم يشع منها ضياء غريب، الأرصفة لامعة وبراقةٌ، احتل الشتاء ومطره المنظر بعد أن امتدت يده بسخاء لتزيل الغبار عن كل ما نمرّ عليه، رائحةَ النسيم عطرة متشبعة بأنفاس البحر القريب علاوة على رائحة الطبيعة . .

أحبُّ الشتاء، أحبُّ المطر، أحبُّ تأثيرهما على الكون، شكراً "أدوناي" على نعيمك الدنيوي هذا، أكيدة أنك راضٍ عني لتمنحني كل هذه السعادة في يوم واحد.

فجأة احتل "وليد" المشهد وبدأ يستفيض في الشرح بما أنه أكثر شخص مثقف فينا والمهتم بالتاريخ والتأريخ فعرَّفَنا بالمكان قائلًا:

يقدس البهائيون عكا وحيفا الفلسطينيتين ومدينة شيراز الإيرانية، ضريح "البهاء" هو مقام "حسين على النوري" "ميرزا حسين على الفارسي المازندراني" مؤسس البهائية في جبل الكرمل، ادَّعى النبوة في شبابه في سن السابعة والعشرين، ولقب نفسه بالباب كنية عن باب الجنة معلنًا أن أتباعه فقط والمصدقين به هم من سيدخلون الجنة، عندما زار جبل الكرمل سنة ١٨٩١ قرر أن يكون مكانَ ضريحه، وبالفعلُ دفن في ضريح صغير بهندسة معمارية بسيطة سنه ١٩٠٩، ثم قام من بعده ولده عباس "عبد

البهاء" ثم "شوقي أفندي" والذي اتخذ خطوات تجهيز ضريح يليق بالباب، فأضاف بمساعدة بهائي عراقي يدعى "محمد القصابجي" ثلاث غرف إلى غرف الضريح الست، ليتحول شكله من بيضاوي إلى مربع مما اضطره لإزالة جزء من حافة الجبل.

وأثناء الاحتفال بمرور مائة عام على إعلان الباب للنبوة، جاء والد زوجه "محمد شوقي" البهائي الكندي "وليام سوثرلند ماكسويل"، عرض تصميمًا للإطار الخارجي للضريح، الذي نال الموافقة.

ثم قام المهندس الإيطالي البهائي "يوغو جيكيري" بقطع الحجارة والرخام للضريح وصقلها في إيطاليا، ثم شحنت إلى فلسطين، بعد وفاة السيد "ماكسويل" ساعد أحد الأساتذة في التخنيون ببعض الإرشادات في التصميمات الهندسية والإنشائية للقبة.

أكمل "وليد" يعتبر البهائيون حدائقهم هذه هدية للإنسانية اختص بها جبل الكرمل، كمركزٍ روحي لأنهم ديانة جامعة عالمية موحدة، لذا يسمحون للجميع بدخولها وارتيادها للتمتع بجمال البناء وجمال الطبيعة الخضراء المتدرجة كما لو كانت حدائق بابل المعلقة، كنت أود لو أصرخ فيه هل تحاول تذكيري بزمن السبي

وهدم هيكل سليمان؟! ألا يكفي سماحي لكَ بتكرار مسمى فلسطين على أذني كل دقيقة على راحتكَ!!.. لكنني فضلت الصمت..

أكثر ما يعجبني في هذا الضريح قبته المذهبة، خاصة مساءً فهو وسط عتمة الليل يبدو كما لو كان قطعةً من جنَّةَ الرب، ومدرجات حدائقه تزهو ببريقها، أعتقد أنها تذكير لنا نحن اليهود بهيكلنا وضرورة إعادة بنائه.

الجميل أننا حين وقفنا في الناحية العلوية للضريح رأينا البحر على مدى البصر بمنظر شديد الروعة، منظر ينسيك هموم الدنيا، لتسرح وتعبق كل ما فيك بكل هذا الجمالِ وتسمح لأذنيك أن تخدعك وتُسمعك صوت وشوشة البحر كأنك أمامه مباشرة، انتهى اليوم كالعادة متأخراً، لكن لم تمر الليلة بسلام بعد أن أسمعتني والدتي وابلًا من التهديدات حال تأخري مرة ثانية.

* * *

بعدها كنا نتجول بين الأديرة والجوامع كتطبيق عملي لدراساتنا في الجامعة، في جامع الشريف أراني "وليد" كيفية الوضوء عندما طلبت منه الذهاب معه لمشاهدته وهو يتوضأ، شاهدنا مسجد جرينه من الخارج فهو آيل للسقوط رغم أن المباني

الإسرائيلية تحيط به من كل جانب حديثة جداً وجميلة للغاية، علمت من "عامر" أنه بناء عثماني بنوه أثناء فترة تواجدهم، كما بنوا برج الساعة تكريمًا للسلطان عبد الحميد الثاني.

* * *

برغم روعة المنتزهات المنتشرة عبر حيفا إلَّا أنها لم تنل إعجابي، لم تأسر مشاعري معها وتثر انتباهي، لا أعلم هل بسبب خوفي من أصدقائي الجدد من العرب؟!، أم أنها فعلًا لم تحظَ بإعجابي؟!، لا أنكر أنني كنت أشعر بالرعب عندما نزور أماكن عربية مثل قرى الطنطورة وعتليت وقيسارية وحيفا القديمة التي لم يتبق منها غير ثلاث قناطر في جبل الكرمل.

كنت أرى في عيون المارة نظرات التهديد، لكن ما كان يطمئنني وجود "وليد" و"عامر" معنا، رغم أنني بحكم ما تربينا عليه من تجنب العرب الإرهابيين وضرورة كراهيتهم لأنهم لا يتمنون لنا إلا الموت، كنت أتوقع دائما أنهما ينفذان فخًّا لإيقاعنا في الأسر، لكن كانا دائمًا يثبتان عكس ظني.

لم أستطع التخلص من عقدة الفخ إلا بعد سنتين معهم، عندما بدأت أطمئن لجانبهم، ساعدتهم على دخول أستاد كريات اليعيزر، وحضرنا مباراة لفريق هبوعيل حيفا، وفريق مكابي حيفا

في كرة القدم، وبما أن أيًّا منا لم يكن يهتم بكرة القدم كانت جولات فضولية.

عدنا إلى المناطق الأثرية والأحياء مثل وادي النسناس ومائدة أميَّ وليد وعامر الشهية وزرنا أيضًا وادي الصليب.

في نهاية شهر مايو "أيار" دعتنا "جوبيتا" إلى مزرعة والدها وعمها احتفالًا بعيد "شافوعوت"[1] تمتعنا بأول الثمار وشاهدنا الحصاد والعمال وهم ينتقلون بكل رشاقة بين الأشجار ليقطفوا ثمارها الشهية، الأجواء كانت تفوق الخيال، جو لطيف، نسيم معبق بروائح الفواكه المختلفة.

حالة من النشاط تغمر الجميع مع حركة العمال وانتقالهم لجمع الثمار، تناولنا الغداء داخل منزل يشبه منازل الريف الانجليزي من طابقين تسكن العائلتان معًا غرف النوم بالأعلى والمعيشة بالدور الأرضي، جو ارستقراطي نال إعجابي بجدارة.

أجمل أحداث اليوم كان أن كلَّ منَّا عاد إلى بيته ومعه كرتونة كبيرة مشكلة من ثمار المزرعة المنوعة، ونحمد الرب أن والدي "إزيه" و"جوبيتا" لم يلاحظا "وليد وعامر" أو ربما تجاهلا الأمر كي لا يفسدا علينا فرحه العيد..

(١) يسميه العرب عيد "العنصره" هو ذكرى نزول التوراة على جبل "حوريب"

هما من النوع المتشدد في التعامل والتعاطي مع العرب ولا يتعاملان معهم إلا في حدود العمل فقط ومجبرين على تلك العمالة من عرب الداخل لأن أجرها أقل، رحبًّا بي بشدة وغير الباقين مُنحت كرتونتين وطلبا أن أوصل سلامي لوالدي.

* * *

٦- لنسلك أعطى هذه الأرض

انشغلنا لفترة في الدراسة والاختبارات، لكن في العطلة الجامعية كنا مستمرِّين في التقابل والتجول بين المدن والقرى، ذهبنا في عطلة العام الجامعي الثاني إلى "مغارة الواد"[١] قرب حيفا.

بعد عودتي إلى المنزل نجوت بأعجوبة رغم تشكك والداي لفترة ومراقبتي بصفة دائمة حتى تأكدا من طردي لأفكار الهرطقة من رأسي، ذلك عندما أخبرت بابا عمّا تحدثت عنه مع "عامر" و"وليد" بشأن أرض الميعاد، وتفسير ما ذُكر في سفر التكوين "قطع الرب مع إبرام ميثاقًا قائلًا لنسلك أُعطِ هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات"[٢]

فعندما قُلت أنهما أخبراني أنه بحسب التناخ ذاته فإن الأرض وعد بها إبرام وبالتبعية أبناءه أجمعين، فلماذا نستحوذ نحن فقط عليها ولدينا أحفاد آخرين شركاء لنا في إرث "إبرام" وهم أولاد

---

(١) فيها أدوات حجرية تعود إلى حوالي ١٥ ألف سنه قبل الميلاد بما يثبت أن الكنعانيين هم أول من استوطنوا الأرض، وأقاموا فيها الكثير من المدن مثل حيفا والطنطورة وقيسارية، أما الفينيقيون الكنعانيون فقد بنو حيفا القديمة أسفل "تل شكمونا"، والتي تبعد قرابة كيلو مترين عن حيفا الحالية

(٢) سفر التكوين (١٥/٨)

إسماعيل من العرب وخاصة من استوطنوا الأرض من الفلسطينيين؟!

اتهمني "يهوشع" بالهرطقة وساندته ماما، ثم تركاني لبابا كي يرد عليَّ، على ألَّا يدعْني لخرافاتي، فلا يريدان سماع مثل هذه الترهات أكثر من ذلك، انتفخ في مَقْعدة الوثير وأجابني:

- مذكور في المقرا يا جاهلة أن الوعد خَصص لـ "إسحاق" ابن "إبرام" ثم منح "إسحاق" بركته ووعده لـ "يعقوب" ليكون وريث النبوة والأرض هو ونسله.
- ولكن في كتاب العهد ذكر: أن "إبرام" لم يكن يملك شيئًا بدليل أنه طلب من "عفرون زوهر الحثي" أن يبيعه مغارة "المكفيلة" ليدفن فيه امرأته "سارة"، فاشتراها والحقل الذي أمام "ممرا" في حبرون في أرض كنعان بأربع مائة شيكل فضَّه، ثم تلاه "إسحاق" وكان مستضعفًا في الأرض كما ذكر في سفر التكوين.

بالإضافة إلى أنه كان يعمل لدى "إبيمالك" ملك الفلسطينيين على جرار، واستَسْمَحَهُ ليدفن مع "أبيه وأمه" في مغارة

"المكفيلة" ، وإذا قال "يعقوب" إنه وعد بها فكيف نصدقه ونحن نعلم كيف خدع أباه لينال بركته موهمًا إياه أنه "عيسو" ؟! .

ـ لأن أدوناي هو من أمر كلَّ هؤلاء بهذه الأفعال، هو السبب في كل ذلك، فهو من أعطى الإنسان طبيعةً رديئةً وسنَّ له شريعة لولاها لما أخطأ ونحن مجبورون على قبولها، لذا هو من يتحمل وزر هذه الأفعال لا الأنبياء .

اسمعيني تتعمقين في أمور ستؤدي إلى أن يعاقبك الرب، احفظي هذا؛ ذكر في التناخ[1] "الأرض التي أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم" ، أي أننا جئنا هنا تنفيذًا لوعد الرب، لا مغتصبين كما يدعون ولا يجوز لنا مناقشة الأمر أو السؤال عن شرعية ذلك، لقد وعدنا هذه الأرض ولنا الحق فيها .

ـ أعلم أن ما تقوله تعلمناه منذ كنا صغارًا في الكنيس، ولكن كيف يرث معنا الأرض يهود سلاسة "الفلاشا" و"الخزر"[2] وهم لا ينتمون لنا جينيًا ولا أيدلوجيًا، ولا

---

(١) (تث- ٨:١)

(٢) حسب تفصيل د. تحيه عبد العزيز إسماعيل، "شرع الله والاشتراكية" فإنهم من أصل مغولي آسيوي، وثنين، انتصر عليهم القائد مروان بن محمد بن مروان سنه ٢٣٧ ميلادية في عصر هشام بن عبد الملك واستولى على عاصمتهم أتيل، فأعلنوا إسلامهم ثم ارتدوا عن الإسلام بعد رحيل الجيش عن بلادهم وتجنبًا للمسيحية البيزنطية تدينوا باليهودية بعد أن أعجب "خان" الخزر بأن اليهود هم شعب الله المختار

يرثها معنا أبناء العم من أولاد إسماعيل، هم معنا منذ سمعنا عن فلسطين وإسرائيل ألا يكوِّنان معًا أرض كنعان؟!

- هم أبناء الجبارين، لم ولن يكونا منا أبدًا، عليك العودة لعقلك مرة ثانية، وإلا فسأضطر للتعاطي معك بشكَل آخر فلا أريد متشككة داخل بيتي، عليَّ مراجعةَ ما تقرئين وتصاحبين قبل فوات الأوان كي لا يفلت زمام أمرك، اقطعي علاقتك بهذه المجموعة فوراً وإلا تعرضتِ لعقاب شديد "تويفا".

- حبيبي أتناقش معكَ لأفهم، أم تريد مني الذهاب لآخرين ممن قد يسيئون فهمي ويبلغون عني السلطات.

- وهل فهمت واستوعبت ما أخبرتك به؟

- بالتأكيد باباَ وأعتذر لأنني أقلقتك عَليَّ، سأذهب لمراجعةِ بعض الأمور في "الكتاب" لتساعدني أن أعود لرشدي، وأُثبت ما أخبرتني به داخل جمجمتي، وسأوقفهم جميعًا عند

وأصحاب الحق الأوحد في حكم العالم، تصدت لهم الإمبراطورية الرومانية الشرقية فتشتتوا في بولندا وأوكرانيا وليتوانيا وغيرها، يكونون ٨٠% من شعب إسرائيل غير قبائل الفلاشا البالغة ١٠%، ثم ٧% أقليات دخلت اليهودية على مر العصور، المجموع النهائي ٩٧% أعراق وسلالات لا تمت ليعقوب "إسرائيل" بأية صلة نسب.

الحد الواجب الوقوف عليه، وسأجعل علاقتي مهنية فقط معهم تقتصر على الدراسة، صحيح بابا لماذا يقِّدس السامريون جبل "جرزيم" القريب من نابلس؟!

ـ تثيرين غضبي، السامريون ليسوا بيهود عليهم إعلان إسلامهم قد نتقبلهم حينها بصورة أفضل.

ـ اهدأ يا جميل أريد التكفير عن أخطائي، امنحني بركاتكَ وموافقتكَ كي أذهب في رحلة حج إلى أورشاليم الشهرَ القادم.

ـ إذا كان تكفيراً يمكنك الذهاب سيكون تكفيراً عظيمًا عن خطاياكِ خاصة في هذا الحر القائظ، لكن اذهبي مع والدتك.

ـ ستظن أنك تريد التخلص منها يا "ميزار"، ثم أنني أريد الذهاب مع أصدقائي، سنذهب لثلاثة أيام فقط، يقولون لا أحد قادرٌ على تسهيل الرحلة غير ابنهَ العظيم "ميزار" هل تريد تصغيري بينهم؟

ـ تملكين رأس والدتك العنيد، حسنًا اذهبي وتمتعي برحلتك ولا تعودي بأفكارٍ عَقيمةٍ مثل ما كُنَّا نتناقش فيه، ولاَ

تستغلي اسمي فلا آمن جانب أصدقائك العرب، فربما يستغلونك لتفجير أحد الأمكنة ووضعي في موقف حرج.

ـ تخاف على "ميزار" أكثر من ابنتك لا يهم إن فجروني؟

ـ هل أجبرتكِ على الذهاب معهم، هيا اذهبي من أمامي قبل أن ألغي موافقتي، انتظري أين ستبيتون؟.

ـ في سكن الشباب، لقد استخرجنا بطاقات عضوية.

منحته قبلةً وانطلقت كفأر يفرَّ من قط متربص به, إلى حجرتي.

* * *

احتفالًا بنجاتي ليلتها، دعوت باقي المجموعة للسهر في شوارع حيفا؛ لا توجد مدينة في العالم كله تساوي قلم ظفر من جمال هذه المدينة ليلًا، هي باريس كما تقول ماما بما أنها من زارتها عدة مرات قبل ولادتي.

أسلوب الإنارة يبدو كما لو كنت في منطقة برج إيفل، يحيط الساحل بالبحر ومع الإنارة يظهر البحر كحدود قلب أسود يبدأ من عندنا ولا ينتهي أو ينغلق، فهو مفتوح في اتجاه باقي العالم إشارة من الرب إلى أن إسرائيل مفتوحة لاستقبال العالم كله وخاصة حيفا.

الشوارع نظيفة ويمكن السير بأمان وسط معارفك من اليهود، كلُ شخص في حاله لا يضايقك أحد بكلمة . .

عكس المناطق العربية التي لا يتركك شخص فيها تمضي في حالك، الجميع يوزع الابتسامات والتحيات كما لو كانوا يعشقون بعضهم البعض، لا أعرف كيف ينتمي "وليد" و"عامر" و"تينا" لهم فهم استثناء غير الجميع.

تجولنا حتى وصلنا كافيه "فتوش" في الحارة الألمانية قرب منزل "تينا"، هناك مزيج بين العربي والغربي في كل شيء حتى في الأطباق المقدمة، أمامه ساحة منسقة الألوان والديكورات، الجلوس فيها مريح خاصة مع خدمته المتميزة، جمعنا طاولتين جوار بعضهما وجلسنا اختارت "تينا" فواكه البحر الشهية واقترحت أن نطلب المثل ففعلنا.

ظللنا نتسامر قليلًا على ضوء قناديل بيضاء الضوء مريحة للعين، وصوت أم كلثوم استغرب الجميع أنني أعرفها فأخبرتهم أن "يهوشع" عاشق لكل أغانيها، عندما اقتربت الساعة الثانية عشر والنصف مساءً قررنا الانصراف والتجول في الشوارع.

اعترض طريقنا في أحد الطرق الجانبية إضراب تضامني مع الأسرى، ممن امتنعوا عن الطعام والشراب، يحملون علم فلسطين

ولافتات ضد العنف، وضد الوحشية، وأخرى تندد وترفض محاولات الأطباء الإسرائيليين لإسعافهم بحقنهم بالفيتامينات والمعادن لإبقائهم على قيد الحياة.

لا أعرف هل يريدون تركهم ليموتون؟ ثم بعد هذا يدعون أننا نقتلهم في السجون؟!، بشرٌ تعاني انفصامًا في الشخصية، ثم إنهم مجرمون، أولًا وأخيراً يستحقون كل ما يحدث لهم، يهددون أمننا وينتظرون أن نصمت ونغض الطرف عن ألعابهم الصبيانية تلك، بل تخطَّى الأمرُ حالةَ الألعاب، فهم يقتلوننا بدم بارد ثم يتفاخرون بذلك، ومن يُقتل يعتبرونه شهيداً، شهيداً لأجل ماذا؟!.

طلبت منهم إنهاء الجولة والعودة قبل أن تأتي الشرطة ويبدأ ما لا تُحْمَدُ عقباه، اتهمني الجميع بالجبن فـ "إزيه" كان يريد الوقوف لمشاهدة تطور الأحداث، أما "وليد" و "عامر" فأرادا الانضمام معهم تضامنًا، و "تينا" و "جوبيتا" لم يتخذا موقفًا، كل ما كانا يرغبانه إكمال السهرة في هدوء، وانتصرت أنا وذهب كل منا لشأنه.

أخبرني "عامر" في اليوم التالي أنه انضم مع "وليد" إليهم، ثم اتهمني بأن داخل قلبي شخص آخر يشاركني حياديتي في الحياة، وهو طفل عنصري ينتظر لحظة الانطلاق.

* * *

تأجلت زيارة أورشاليم وجبل عيبال لمرض والدة "تينا" فاكتفينا بالرحلات البرية عبر الساحل، حيث نستمتع بالسير على الشاطئ والسباحة في البحر، لنخفف من عبء الحر وفظاظته، بعدها نتجول بين الأودية التي تشق جبل الكرمل وأشهرها وادي لوطم ووادي عميق ووادي السياح، رأينا هناك الخنازير البرية والحرباء وابن آوى الذهبي والنمس المصري، الغريب أنها قريبة جداً من المناطق السكنية.

كانت "تينا" ذاهبة إلى مُصلَّى القلب المقدس، سيدة الكرمل ستالاماريس، ذهبنا معها كي نُصلِّي لوالدتها وندعو لها بالشفاء خاصة مع تطور حالتها، فهي مصابة باللوكيميا، تأكدت من سوء الحالة عندما رفضت "تينا" أن نذهب إلى منزلها لزيارتها واقترحت الذهاب للمصلى، لكن "جوبيتا" همست في أذني؛ "رغم كرمهم معنا عندما نذهب إلى المزرعة إلا أنها تحافظ على سرية منزلها في حيفا بشدة، قائلة: "هو مملكة والدتها الخاصة جداً"،

لم أجد ردًا مناسبا فصمتُّ، وأنا أُؤرجحُ رأسي يمينًا ويسارًا علامة الموافقة.

عندما وصلنا قررت "تينا" أن تكون هي المرشد السياحي فأخبرتنا: إن "السيد المخلص"، عندما وضع قدمه على أرض حيفا باركها مع والدته العذراء، ومنها أكمل طريقة إلى مصر عن طريق الناصرة، وقد سلك طريق الساحل كي يفر من خطر الحكم الروماني الغاشم، فقطع مع أمه مقام الخضر ثم سارت أمه حذاء الساحل مع شاطئ البحر أمام كنيسة اللاتين، وأن بولس أيضًا مرَّ على حيفا في رحلته الثالثة للتبشير بالمسيحية، و"إلياس" و"اليسع" درسوا الديانة في مدرسة الأنبياء التي تسمى الآن مقام الخضر، كما انتصر "إلياس" على أعدائه الوثنيين في منطقة جبل الكرمل، في المكان الذي بنيت عليه كنيسة "مار إلياس".

سأخبركم القليل عن "تينا" هي بيضاء ذات شعر أسود من سواد ليل حيفا، منسدل كموج البحر، على ظهرها حتى منتصفه، متوسطة الطول، تعشق القراءة حدَّ الجنون إذا لم تكن تقرأ فهي تأكل لذا فهي تشبه الكرة إلى حد كبير.

عندما تراها تكاد تتأكد أنها سبب مجاعة الصومال بل أفريقيا كلها، تقطن الحي الألماني "كارملهايم" يرى والداها أن حيفا

"كوسموبوليتية"[1] بيدها مفاتيح الحفاظ على الموروث الثقافي الخاص بها، ومنفتحة أمام أفكار معاصرة ومتقدمة وافدة عليها من الغرب.

والدها ألماني يهودي يعمل في السكة الحديد، تعرَّف على والدتها أثناء الدراسة الجامعية في ألمانيا فأحبها وظلا صديقين وبعد الدراسة تزوجا، والدتها فلسطينية مسيحية، لذا هي كأمها مسيحية ولم يحاول والدها الاعتراض على الأمر..

لم ينجبا غيرها بعد تعرض أمها لحادث سير تسبب في أن تصاب بالعقم بعد ولادتها مباشرة، جدي "تينا" متدينان للغاية ويرفضان زواجه، حاولا منعه بإقناعه بكثير من النقاشات وتذكيره بعقاب وغضب الرب إذا نفذ هذه الزيجة:

"وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ لِعَبْدِهِ كَبِيرِ بَيْتِهِ الْمُسْتَوْلِي عَلَى كُلِّ مَا كَانَ لَهُ: «ضَعْ يَدَكَ تَحْتَ فَخِذِي، فَأَسْتَحْلِفَكَ بِالرَّبِّ إِلهِ السَّمَاءِ وَإِلهِ الأَرْضِ أَنْ لاَ تَأْخُذَ زَوْجَةً لابْنِي مِنْ بَنَاتِ الْكَنْعَانِيِّينَ الَّذِينَ أَنَا سَاكِنٌ بَيْنَهُمْ، بَلْ إِلَى أَرْضِي وَإِلَى عَشِيرَتِي تَذْهَبُ وَتَأْخُذُ زَوْجَةً لابْنِي إِسْحَاقَ"[2] و"إن زرع الرجل غير اليهودي هو زرع

(١) مدينة عالمية

(٢) التكوين (٤ – ٢٤: ٢)

حيواني "[1] كما يـذكر التلمـود فهـل تريـد لأبنائـك أن لا يكونـوا يهودًا ويتحوْلون إلى حيوانات؟!.

لكنه لم يستمع إليهما، وعندما أتم زواجه رغمًا عنهما حاولا إفشاله بأية طريقة، انتهى الأمر بفراره إلى إسرائيل بناءً على توصية أحد زملائه في العمل، ليكون بعيدًا عن نفوذهمـا، هـاجر بعـد أن سمع أنها دولة الحرية واقتـصاديًا تـوفر لمواطنيهـا مـستوى معيـشيًّا مرتفعًا.

يملكان مزرعة كبيرة جدًّا، مقسمة إلى منـاطق، فهـم يزرعـون محاصيل كالقمح والشعير والعدس والخضراوات، وأيضًا يزرعـون حدائق حمضيات وكروم العنب وأشجار الزيتون والرومان واللوز، أحيانًا نذهب إليها لتتنـزه، وفي أغلـب الأحيـان إن لم يكـن دائمًـا نذهب إلى منازلنا مُحمَّلين بهـدايا العـم "جيكـوب" مـن الفواكـه والخضراوات الطازجة.

* * *

ظللْنا بعدها لفترة في حالة سكون بسبب مرض والـدة "تينـا" المستمر، مكتفين بالمقابلات العادية تستضيفنا كافيهات حيفـا بكـل

(١) التلمود

ترحاب، خاصة مطعم "فسحه" وهو مكان بسيط وصغير لكن الجلوس فيه ممتع.

بين الحين والآخر يدعونا "وليد" و"عامر" على سهرات عربية خاصة كنت أشعر بمشاعر الامتعاض من والديهم ولكنهم في النهاية كانوا يتقبلوننا داخل منزلهم بصدر رحب، حتى صرنا أصدقاءَ مرحبًا بهم، وبينهم تغيرت كثيرًا من وجهات نظري العنيفة وعرفت كيف تكون العائلة وكيف يكون الحضن الدافئ.

* * *

بدأت عن طريق "وليد" في التعرف على المسيحية والإسلام ودراسة الفقه المقارن والعقيدة لكل ديانة، هو عاشق لهذه القراءات ويحب تبادل الثقافة والمعرفة، فكان يمنحني ما يقرأه لمعرفته حبي القراءة المتنوعة لإشباع فضولي نحو كل ما هو غريب عني، وعندما يستعصي عليَّ الفهم كان "وليد" أو "عامر" يشرحان ببساطة كل ما كنت أراه معضلة رهيبة، كنت أفضل شرح "عامر" لأنه يبسط كلَّ شيء في الحياة بكلمات موجزة.

استمرت صداقتنا وزمالتنا في طريقها العلمي دون الخوض في أية علاقات أو مشاعر خاصة لمدة ثلاثة أعوام كانت الأجمل، رغم

اعتراضات بابا وماما عندما لاحظا انسحابي الكبير بعيداً عنهما واندماجي مع مجموعتي الجديدة وقربي الشديد من اثنين عرب والثالثة والدها كما تقول ماما جُن وتزوج فلسطينية عربية . .

لم يشفع لي لدى والديّ إلا درجاتي المرتفعة، وزيادة آمالهما في أن أكون عضواً أكاديمياً في الجامعة، ثم هدأا عندما عرفتهما على "إزيه" وقريبته "جوبيتا" صديقتي في المجموعة.

ويبدو أن "جوبيتا" أعجبت "يهوشع" فلم يعد يثير والداي علي كلما طلبت الخروج بل العكس كان يشجعهما على القبول، ثم بعد فترة لاحظت اهتمام "جوبيتا" بـ "يهوشع" وأخباره، عندما حاولت التلميح بأنه يكبرنا بعشر سنوات، أجابت "وما شأني كما أن السن ليس بمقياس لأي شيء" .

أعلم أنها تهتم بالمال فقط، لكنني وجدت أنها خير عقاب لأخي على حبه الشديد للنساء عامة والفتيات الصغيرات خاصة وسهراته الماجنة كما تسميها ماما، فقد تصلح حاله هي كما تظن، عندما ألمحت لها بما أشك فيه، ومنحتني إذْنًا مفتوحًا طالما "جوبيتا" معي لأتعرف عليها أكثر وأخبرها عمن ستكون زوجة ابنها عما قريب.

مرت ستة أشهر بعدها كانت والدة "تينا" قد تماثلت للشفاء بفضل العلاجات الحديثة وخبرة الأطباء في إسرائيل، لذا قررنا الانطلاق إلى مدينة العشق الأزلية إلى أورشاليم أو كما يسميها "عامر" وباقي العرب القدس، تبعد عنا حوالي ١٥٨ كم، بما يعني ثلاث ساعات إذا ذهبنا بالباص.

* * *

7- فى حضرة الروح الإلهية

الطريق طويل لكن ما عذَّبنا حقًا هي الحواجز الأمنية خاصة مع تشديد والدي علىَّ، ألا أبرز هويتي الإسرائيلية وأعرِّفُ عن نفسي إلا إذا طُلب مني ذلك، وألا أتبرع بإظهارها أنا كي أُسهل الأمور على هؤلاء العرب السفر مستغلين اسمه وسمعته، فالرب الوحيد العالم بنواياهم من هذه الجولة.

أشعرني أننا ذاهبون لتفجير أنفسنا لدرجة أنني خشيت أن يتحول الأمر لمأساة فعلًا وأكتشف في النهاية صحَّة مزاعم بابا لذا التزمت بأوامره، ولم أكن أبرز بطاقة هويتي إلَا إذا طُلب مني وإذا استوقف الاسم أحد الضباط وسأل عن والدي كنت أدّعي تشابه الأسماء، ليبتسم الباقون دون أية كلمة، أحيانًا يتحول أصدقائي إلى بشر حمقى وسمجين كما يفعلون في هذه اللحظات.

الجميل أننا نسافر في بداية عام جديد، لنبارك باقي العام بهذه الزيارة المميزة، سيظللنا الشتاء والمطر، كنت أعيش حالة وجدانية رائعة، كنت أشعر بأن روحي تسبقني إلى هناك، عائمة أنا في بحر من اللذة الروحية..

وفجأة امتدت يَدٌ بيضاء ممتلئة كما قطعه من عجين، أرحمني "أدوناي" لقد أخرجتني "تينا" من حالة الهيام الروحي عندما وضعت في يدي البوشار، ثم رأيت تشكيلة رائعة من المقرمشات تم الأمر بنجاح، ونجحت في إغوائي، ضحكت ولم أستطع إخبارهم ببساطة أن "كيتي" ستقتلهم يومًا بسبب العادات الغذائية التي يدخلونها على برنامجي الصحي الذي وضعته بدقة ونظام.

آه "تينا"..

ها قد عدْتُ ثانية إلى عالم الأرض لأتناول معهم بعض هذه المغريات، نعتوني بالجبانة، عديمة الشخصية، وأنني وماما مجنونتان بالمظاهر بشكل لا يصدق، كعادتي.. غصت وسط عالم الصمت فهو خير إجابة، ثم خطفت بوشار "عامر" فلم يعترض.

كنا نتسلى أثناء الطريق حتى يمر الوقت بوجبات سريعة ومسليات مختلفة، فلقد تكفل "إزيه" و"جوبيتا" بإحضار المشروبات الغازية والعصائر الطبيعية، أما "وليد" فلقد أحضر شطرنجًا وديمنو ليلاعب "إزيه"، وأحضر "عامر" مخبوزات وكتاب عن أدب الرحلات فلا يريد أيًّا منَّا أن يقبض عليه للسفر مع كتاب ديني أو سياسي.

بالنسبة لي أخبرتهم أنني مسؤولة عن غداء المجموعة أول يومين، وأحضرت فلاشة أغاني عربية منتقاة أو هكذا أخبرني "يهوشع" بالتأكيد اطلعت عليها أولًا فلا أريد المجازفة بأن أجدها مثلًا فيلما لا يجب مشاهدته، كان عليها مجموعة من أغاني فيروز وأم كلثوم، رغم تشدد أخي معي إلا أنه أحيانًا يمنحني بعض الاستثناءات مثل إقراضي فلاشة الأغاني هذه المرة. .

في الأساس هو ليس متديِّنًا مثل والديَّ، ويرى إسرائيل كما العم "فيلبي" مجرد بلد يوفر مستوى معيشيًّا مرتفعًا ومركزًا اجتماعيًّا ونفوذًا يعشقه ويشتهيه بجنون، هو وطن يحقق له أحلامه على طبق من ذهب، فيه هو ملك غير متوج.

عندما وصلنا قررنا أن لا راحة خلال الأيام الثلاثة، وفعليًّا زرنا أغلب ما في المدينة، كنا نخرج صباحًا ولا نعود إلا للنوم قليلًا ثم نستيقظ لننطلق من جديد، وجدْنا سور المدينة مُصممًا على شكل شبه منحرف، له أربعة وثلاثون برجًا اكتفينا بزيارة برج اللقلق وبرج كبريت، أما الأبواب السبعة المفتوحة فكُنَّا نجري كي نشاهدها ونلتقط الصور أمامها.

لم نذهب ناحية البوابات المغلقة؛ فسلطات الأمن أغلقت العديد من البوابات؛ كي تستطيع التحكم في دخول وخروج الجميع من مسلمين ومسيحيين ويهود، أعجبني الأمر أنا و"إزيه" و"جوبيتا" وأثار استياء الباقي لكنني لم أهتم ولم أعلق.

أعجبني القوس المستدير الموجود بين برجين في باب العمود، أما باب هيرودوتس أعجبني اسمه أكثر من التصميم فهو بسيط البناء، يشبهه باب الأسباط غير أن هذا يوجد أسدين على جانبي المدخل، باب المغاربة أصغر الأبواب ومصمم على شكل قوس ضمن برج مربع الشكل، باب صهيون أو النبي داود تصميمه منفرج لم يعجبني غير اسمه، باب الخليل لم يثر اهتمامي هو وباب الحديد أخبرنا "عامر" أن أغلب هذه الأبواب من تصميم العثمانيين، أما المغلقة فأغلبها أموي.

في باقي اليوم الأول بدأنا التجول بين الأحياء والحارات، فذهبنا إلى حارة النصارى، تقع غرب البلدة القديمة، من درج باب خان الزيت وسط السوق حتى باب الخليل، لكنَّ الغريب أنني وجدت أغلب الحوانيت لمسلمين، إلا إذا كنت لا أستطيع التمييز بينهم، كنيسة القيامة تقابل مسجد عمر بن الخطاب بدأنا التجول في الكنيسة أولًا، هي عبارة عن القبر وعدد من الكنائس

والمصليات، في واجهة دخولنا يوجد ما يشبه الرواق ولكنه مهدم، تُمثِّلْ أعمدته واجهة الكنيسة.

في الاتجاه الآخر الشرقي يوجد دير إبراهيم ومصلَّي، أخبرتنا "تينا" أنه للأرمن وكنيسة القديس ميخائيل، أخبرتنا أيضًا أنها للقبط، ومررنا على كنيسة القديس يعقوب وكنيسة مريم المجدلية والأربعين شهيدًا، كنت أودُّ الاستفسار عن هؤلاء الأربعين ولكنني لم أرد أن أدع مجالًا لهم للمماطلة، فلدينا برنامج حافل، يكفي أنهم قد أجلوا زيارة "كوتل معرافي"[1] لليوم الأخير بدعم "عامر" و"وليد".

خرجنا من هذا الاتجاه إلى الاتجاه المقابل مسجد عمر، ماذا أقول عنه؟!، هو مكان للعبادة فلا توجد زينة أو شيء مميز؛ الكنائس أكثر منه جمالًا؛ ومعابدنا نهتم بها أكثر من اهتمام المسلمين بمساجدهم، ضحك "وليد" واعترض "عامر" عندما قلت هذا وقال إنَّ ربهم أمرهم بالبساطة هكذا.

الجميل في الأمر أن هذه البساطة كانت لصالحنا، فلقد أنجزنا الزيارة في عشر دقائق، ومنه انطلقنا إلى مقام النبي داود كنت أظنه مزارًا يهوديًّا لكني اكتشفت أنه ضريح ملاصق لمسجدين يسمى

(١) حائط المبكي- حائط البراق- الحائط الغربي

أحدهما العلوي لم يكن بسيطًا هذه المرة فهو يحتوي على أقواس وأعمدة ضخمه.

لم أعلم أنه مصنَّفٌ ضمن المزارات الإسلامية، رغم أنه يقع أعلى ربوة جبل صهيون، تحيطه منازل عائلات عربية، وهو عبارة عن بناء من الحجارة وسط الحي الطابق السفلي مسجدان أحدهما أكبر من الآخر، الحوائط مليئة بآيات قرآنية، وفي الطابق العلوي فوق المسجد الكبير توجد ردهة كبيرة، كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة لذا مررنا على حارة الأرمن وتجولْنا سريعًا ثم عدْنا إلى الفندق لننام قليلًا أو على الأقل لنرتاح.

في اليوم الثاني ذهبنا إلى الحي الإسلامي، أخبرنا "وليد" أنه أكبر حي في القدس القديمة وفي داخله القدس الشريف، كنت أود لو أضيف نعم ما يحجز هيكل سليمان أسفل منه، لكنني خشيت إثارة زوبعة ستنهي الرحلة في ثانية، خاصة وأنني وجدت "إزيه" و"جوبيتا" يسمعان في صمت، وبما أنني لست بأفضل منهما فصمت مثلهما.

الجو كان صافيًا وكأنما الشتاء قد عقد صفقة مع أصدقائي، هم عكسي لا يفضلون المطر، الشوارع تتبارز في إظهار قدمها مرصوفة بالحجارة بشكل جميل والمباني كلها مبنية من الحَجارة

البيضاء، تجعلك تشعر بوجل غريب وهدوء أشد غرابة، تجولنا حتى وصلنا إلى حارة السعدية، هي قريبة من باب النبي داود وهناك وصلنا إلى دير حُبس المسيح ومنه إلى كنيسة حبس المسيح المقام على أنقاض دار قيافا كبيرُ كهنة اليهود[1]، قامت "تينا" بدور المرشد في هذه المزارات متبرعة كنا نهرب منها بالتركيز في مشاهدة بناء الكنيسة ذي الحجارة المائلة للصفرة.

وجدنا مطعمًا للوجبات السريعة، فطلبنا سندوتشات شاورما وكبابًا وعصير برتقال وكولا، بعد فترة الراحة القصيرة قررنا الانطلاق إلى "كنيسة الجثمانية".

كالعادة استخدمنا الخريطة لنحدد إلى أين نتجه، واستعنا بالإنترنت لتحديد أنسب وسيلة مواصلات، كنا نستقل الباص فهو أفضل وسيلة تنقلات في المدينة كلها، الروعة تجلت في هذا البناء بألوانه وتصميماته فمن بعيد تجده شامخًا وسط الأشجار الكثيفة، أخبرنا أحد المسنين وهو يسبِّحُ بمسبحة في نهايتها صليب خشبي داخل الباص، أنها تقع في "وادي يهوشافاط"[2] حيث

(١) يعتقد أن المسيح اقتيد لاستجوابه قبل أن يقدم للمجمع اليهودي لمحاكمته.

(٢) وادي قدرون

سنحشر يوم الحساب، الكنيسة في مفرق طرق بين القدس والطور وسلوان، شُيِّدت فوق صخرة الآلام التي صلى عليها المسيح وبكي قبل أن يعتقله الرومان.

تجول معنا المسن واعتبر نفسه مرشدنا السياحي وأكمل حديثه معنا بأن الكنيسةُ دُمِّرت أكثر من مرة، حتى أعيد بناؤها سنة ١٩٢٤م على يد الإيطالي انطونيو بارلوزي؛ وأسهمت ١٦ دولة بتمويلها، لذلك تعرف بـ "كنيسة كل الأمم"، زرع في حديقتها ثمانية أشجار زيتون من الفترة الرومانية، واللوحة المرسومة على واجهة الكنيسة "لوحة يوم القيامة" للرسام ليوناردو دافنشي، انتهت الجولة بسلام وعدنا إلى الفندق.

أعتقد بعد يوميْ تشرد بين أروقة أورشاليم خاصة بعد سفر مرهق وتوقف لأكثر من ست ساعات بسبب الحواجز الأمنية على طول الطرق، من حقنا أن ننام قليلًا، أشكر الرب أنها رحلة خاصة شبابية ولسنا ملزمين ببرنامج محدد، صعدنا إلى غرفنا لنرتاح وننال قسطًا من النوم.

لم نستيقظ إلا على اتصال "إزيه" بعدها بسبع ساعات يوقظنا كي نتناول الفطور، ثم نكمل الجولة، كان الأمر أفضل حالًا بعد هذه الراحة، تناوبنا الاغتسال ثم نزلنا إليهم في مطعم نزل

الشباب، تناولنا الطعام، وانطلقنا بعد تمديد الإقامة لليلة أخرى، فالجوَّ يُنبئُ بهطول أمطار ولن نستطيع السفر من أورشاليم إلى حيفا في ظل هذه الأجواء، خاصة مع السخافات التي نتعرض لها مع الحواجز الأمنية.

طلب "وليد" أن نذهب إلى المسجد الأقصى[1]، أعلم أنه في عهد الصليبيّين كان قسم منه كنيسةً والآخر مسكنًا لفرسان الهيكل حتى استولى صلاح الدين الأيوبي على القدس، وقام بإصلاحه بعدما حوله لملكية عربية إسلامية، ثم أحرقه السيد "روهان" في ٢١ أغسطس "آب" ١٩٦٩ فاحترق ثلث المسجد، صحيح أني ضد التطرف، لكن أعتقد أن السيد "روهان" كان يحاول استعجال هدم المسجد وإعادة بناء هيكل سليمان ليُسهم في إعادة ملك اليهود؛ ولا عذر له.

السيد "روهان" أسترالي مسيحي، لكنَّ العرب كعادتهم في لصق أي تهمه بنا ادَّعوا أنه يهودي متطرف، وتحملت الحكومة إعادة إصلاحه رغم اتهاماتهم تلك، كنت مرعوبة أن أذهب إلى والديَّ وأنا أطلق على الأماكن أسماء كما المسلمين؛ رغم أننا

(١) أو المسجد القبلي المسقوف هو بناء قائم على ثلاث وخمسين عمودًا من الرخام وتسع وأربعين سارية مربعة الشكل، أيام الأمويين كانت أبوابة من الذهب والفضة، لكن المنصور أمر ببيعها لكي يتم الإنفاق على المسجد منها، وصنعت قبته المفضضة وأبوابه الشمالية في القرن الحادي عشر

أغلبية يهود لكننا صمتنا وتركنا "وليد" و"عامر" يطلقان الأسماء الإسلامية على أغلب الأماكن دون اعتراض منا.

داخل ساحة الحرم عدة قبب، منها قبة الصخرة، قال "عامر" إن نبيَّهم محمد سافر من مكة إلى الأقصى ليعرج منه إلى السماء أعتقد أن هذا أوان الصمت الحقيقي!!، سافر ليلًا وأتى هنا وربط البراق عند الحائط ويريدون مني التصديق!!، عقليات متخلفة تعيش في كأس فاسد عقيم التوجهات والأفكار.

كنت أود إخبارهما أن الصخرة (أيبن هاشتيا) كانت مذبحًا للرب، فهي أصل خَلْق الأرض، وجبل صهيون هو سرة العالم، فهما لنا وليس لهم كما يدعون، لكن علَّمنا أحبارنا صغارًا ألا نخبر من أمامنا خاصة من العرب بكل ما ننويه، بل يمكننا حتى الحلف على شيء آخر غير ما يريدوننا الحلْف عليه لننجو بأنفسنا، وأنا الآن أريد النجاة بحياتي فلا ضمان لَما قد يحدث إذا أثرت عداءهما نحوي.

المهم كانت الساحة حسبما ذكر "وليد" و"عامر" مركزًا للتدريس والعبادة والاعتكاف، أَعْجَبَتْني القبة المذهبة وتجانس الأزرق مع الأخضر في النقش أعلى الحائط الخارجي للقبة، قال "وليد" إنَّه فَن هندسي مزيج بين العربي والفارسي والروماني،

القبة نفسها مرتكزة على بناء أسطواني ثماني الشكل فيه ١٦ نافذة معتمدة على أربع دعامات و١٢ عمودٍ موزعة بشكل دائريٍّ بحيث يتوسط كل دعامتين ثلاثة أعمدة.

تحت القبة من الداخل توجد صخرة نبيهم محمد، يحيط بها درابزين من الخشب المنقوش والمدهون، وحوله مصلًّى مخصص للنساء، المُثير أن تحت الصخرة توجد المغارة، نزلنا إليها من جهة الجنوب بواسطة إحدى عشرة درجة، لها شكلٌ مربعٌ، في النهاية علمت أن القبة مدهونة بالذهب الخالص حقًا.

بالقرب من الرواق المؤدي إلى صحن قبة الصخرة، توجد قبة أخرى تسمى قبة الخضر، أُنشئت في القرن العاشر الهجري، وهي صغيرة قائمة على ستة أعمدة رخام، داخلها زاوية الخضر، تتكون من ستَّة أعمدة رخامية، فوقها ستَّةُ عقود حجرية مُدببة.

بعدَها ذهبنا لنشاهد قبة المعراج، وهي عبارة عن بناء مُثَّمن، أنشئ على ثلاثين عموداً، غُطيَّتْ جدرانُه بألواحٍ من الرخام الأبيض، والقبة مغطاة بصفائح من الرَّصاص، وهي شمال قبة الصخرة بنيت كتذكار لعروج نبيهم إلى السماء بجسده، خرافات وكأن نبيهم يملك أجنحة.

لم يستغرق الأمر كثيراً لننتهي من مشاهدة القبب، ثم تجولنا بين المآذن وكنا نستعين بما هو مكتوب عنها في اللوحات الإرشادية، ثم انطلقنا بعدها بين الأروقة التسع في المسجد الأقصى لنشاهد ما فيها ونلتقط الصور أمام المباني المسماة سبيل.

أجملهم كان سبيل الكأس، فهو يشبه النافورة مقام أمام المسجد الأقصى، وسبيل قايتباي المقابل للمكتبة يمكن الصعود بسلّمٍ صغيرٍ والدخول إليه، مبني صغير لكنه جميل ويشبهه كثيراً سبيل بابً المغاربة، أما سبيل قاسم باشا فيبدو كما لو كان مُهيَّأً للجلوس ينقصه فقط المقاعد، خاصة مع المظلة التي تحمي من أشعه الشمس الحالية.

عندما كنا نشعر بالإرهاق كان ينقذنا الجلوس على المصاطب المنتشرة عبر المكان، فهي حسب عد "تينا" خمس وثلاثون مصطبة هي بناء صغير مربع أو مستطيل الشكل ترتفع عن الأرض بدرجة وأحيانًا درجتين كما أنَّ درجات السّلَّم مبنية من الحجارة، أخبرنا "وليد" أنها كانت تُستخدم للدراسة وتعليم موضوعات العلم الشرعي في الحديث والسيرة النبوية والتفسير والثقافة الإسلامية والفقه؛ مع بعض العلوم الأخرى كاللغة العربية والرسم.

بعد ذلك انطلقنا لأحد المطاعم السريعة لتناول سندوتشات بطاطس وشاورما مع كثيرٍ من عصير البرتقال والكولا، في هذه الأثناء عدت لتذكر كيف وصف كتابنا "الزوهار" . .

بدأ الخلق وقال إن: يهوه في عُلاه ألقى حجرًا كريمًا من عرشه في الفضاء المظلم، فغطس جزء وظهر جزء آخر فوق السديم، كان هذا الجزء الظاهر في الامتداد يمين وشمال حتى أرسيت الأرض عليه، ليكون هو حجر الأساس ثم تكوَّنت الأرض حوله على ثلاث مراحل:

الأولى دائرةُ حول الحجر نورانية، تمثل الهيكل ومدينة أورشاليم، والثانية أقل شفافية وهي الأرض المقدسة دولة إسرائيل بحدودها الواسعة من النيل للفرات، ثم المرحلة الثالثة كانت الأرض ذاتها، وهي بقية العالم حيث يعيش الغوييم، وفي الإطار الأخير المحيط بالأرض يعيش الجن.

عندما أُدخل تابوت العهد إلى الهيكل صاح فرحًا: "هذا مستقري إلى الأبد وهنا سوف أقيم، وكان صوت الروح القدس يردد هذه الكلمات على مسامع إسرائيل"[1]

(١) المزامير ١٤/١٣٢

ها هم الأجداد فقدوا الهيكل والتابوت؛ لكننا الجيل الجديد جيل الأحفاد سنعيد كل شيء مرة ثانية، سينضم إلينا الغوييم عندما نثبت لهم أننا على حق وسنرفضهم.

انتبهت على صوت "تينا" وهي تصرخ عليَّ كي أنتهي من سندوتشاتي، فعلينا التوَّجه إلى حارة المغاربة وهي جنوب المدينة القديمة في أورشاليم، تجاور حارة اليهود يدَّعي "وليد" أنها كانت تُسمَّى حارة الشرف وكان يملكها عرب.

لم أهتم بأقاويله، أعلم أننا عشنا نكْبَةً بعد أن حكم الانتداب البريطاني للعرب بملكيته ليسموه كما يريدون حائط البراق.

يكفيني أنني ذاهبة للحج، سأرى حائط المبكى لأول مرة، المكان يبدو كما قلعة كبيرة من الحجارة مقسم بدقة وتوجد مساحات خضراء جميلة، وأماكن تسمح بالانتظار، العديد من الأروقة المنظمة كالعادة بواسطة رجال الشرطة الإسرائيلية، أخرجنا هوياتنا، عندما قرأ المجند هويتي أولًا توقف للحظة ناظرًا بتمعن إليَّ ثم أوقفنا وذهب إلى قائدة يهمس في أذنه، توقعت أن أمرنا انتهى، وأن رحلتي ستبوء بالفشل، بالتأكيد هناك خطب ما، هل سنتعرض للمشاكل بسب "وليد" و"عامر"؟، سيتوقف

قلبي رعبًا، هل أتَّصل بالبابا؟ سيوبخني بالتأكيد، لأنتظر قليلًا ثم أطلب أخي ليتصرف هو.

عاد المجند مع قائده متجهمي الوجه، عندما نظرت لأصدقائي قال "إزيه" يبدو أن اليوم سيكون طويلًا، فاجأتني ابتسامة القائد ثم سماحه لنا بالدخول جميعًا دون تفتيش باقي المجموعة، وطلب أن أبلغ بابا تحياته، ابتسمت نصف ابتسامة علامة الموافقة وعيني تجيبه.. بالتأكيد لن أفعل.

حائط المبكى العزيز، هو الحائط الغربي لأقصى المسلمين الآن، وينكرون أنه من بقايا هيكل سليمان، خربة "بختنصر"(١) وسبى الأجداد لقرون، وعندما انتهت الغمة وعادوا لتعمير مملكة الرب والهيكل تسلط عليهم الملك المقدوني "انطيوخوس الرابع" ليكمل تعميره "هيرودس" ثم دكه ومحا نوره الساطع الجبار "تيطس" سنة سبعين ميلادية فتشرد الأجداد.

(١) حسب ما ذكروه فإن من بناه هو سليمان إتماماً لعمل أبيه داود عليهما السلام بأمر من الله، وضع فيه تابوت العهد وشريعة موسى عليه السلام، وظل الهيكل قائما حتى جاء بختنصر "نبوخذ نصر" وهدم الهيكل سنة ٥٨٦ قبل الميلاد وأخذ اليهود عبيدا إلى بابل، بعد ٧٠ سنة تقريبا مع احتلال الفرس لبابل قام ملك الفرس كورش بإعادة المسبيّين اليهود إلى فلسطين وقاموا بإعادة بناء الهيكل، حتى جاء الملك هيرودس الذي أتم البناء بطريقة مختلفة وسمي باسمه هيكل هيرودوت وهو الهيكل الثاني، ثم دمر الهيكل الثاني على يد قائد الجيش الروماني تيطس سنة ٧٠ ميلادية.

جو معبق بعبير رحيق الأجداد، مناظر تنقلنا لجوف الأساطير وتفصلنا عن جو مشحون بالتوتر والقلق يحيط بكل ما حولي الآن، بدأت السماء تنثر علينا فضتها، نفحات خفيفة كما الرذاذ، ليتحول المكان إلى أسطورة خاصة أعيش داخلها، ذهبنا إلى ركن النساء ووقفنا قبالة الحائط، وضعت أنا و"جوبيتا" الشال على كتفينا، لم أجد داخلي دموعًا لأمارس الشعائر ببساطة حاولت التركيز أكثر وفشلت..

لم أستطع أن أبكي وأنتحب على مجدنا الزائل، لعلنا نكفر عن خطايانا، نظرت اتجاه "إزيه" غير البعيد عنَّا أمام الحائط مباشرة ليثير حقدي عليه؛ فممنوع علينا نحن النساء الاقتراب من الحائط بل نُنفى لزاوية بعيدة نسبيًا، تأكد من تثبيت طاقيته[1] بدبوس على شعره، والطاليت على كتفيه وهو يصرخ نحونا "ليتنا نسمع دوي صوت "الشوفارت" الآن".

يبدو أن الحديث لم ينل إعجاب شركائنا فتمتم "وليد" ببضعه كلمات غريبة؛ ونظر إلينا "عامر" نظرات غاضبة فسحبتهما "تينا" بعيدًا قائلة: "دعوا كلَّ شخص يمارس طقوسه دون

(١) كيبا- يرملكا طاقية اسطوانية الشكل تثبت منتصف الرأس، مفروضة في الصلاة وفي غير الصلاة حرية شخصية، "قم بتغطية رأسك حتى لا يكون غضب السماء فوقك" التلمود.

إزعـاج، فلـنحترم بعـضنا الـبعض يـا سـادة" ، وذهبـوا لإحـدى الاستراحات القريبة منا، لا يفرق معي ما قـالوه لـذا ركـزت فيمـا أفعل، وبدأت أقرأ أجزاءً من التوراة.

لم أصدق نفسي، ها أنـا أمـام الحـائط حيـث تتجلـى حـضرة "الروح الإلهية" ، تذكرت البشاعات التي يدعيها المسلمون عنـا في كتابهم، نحب الجميع لكـنهم يزرعـون الكُـرْه في قلـوب تـابعيهم، اختنقت عيني بالدموع وتضرعت للرب وتلوت صلواتي وكثيراً مما أحفظ من المسورات والمزامير، ثم قرأت من كتاب منحني إياه أحد الشماسين المتواجـدين بكثـرة حولنـا، فيـه ترتيـب الخدمـة الدينيـة والصلوات التي تُتلى عند الحائط.

تذكرت كيـف أنـني قـد لا أحظـى مـرة ثانيـة بـالوقوف أمـام "الشخيناه" فظللت أدعـو بـالغفران والحيـاة الـسعيدة، وأن يحـل الأمن والسلام على إسـرائيل، وأن يقـوي حكومتنـا علـى فـرض الديمقراطية خاصة مع ما تعانيه من اخـتلاف بـين في أفكـار شـعب إسرائيل بسبب احتضانها لكل الديانات، وأن يلهمهم الصبر علـى سخافات المعارضة خاصة ممن ينتمون لأصول سامرية أو سـفاردية أو عربية.

ثم طلبت الصفح لم أتذكر شيئًا خاطئًا محددًا فعلته غير علاقتي بـ "عامر" و"وليد" فطلبت الصفح عنها إذا كانت خطأ وطلبت من إلوهيم مساعدتي على الابتعاد إن كان الأمر لا يجوز، أو أن يمنحني بركته إن كان يوافق على صداقتنا هذه، فأنا لا أريد الخروج عن جنة الإيمان، فجأة توقفت زخات المطر، هل هذه إشارة ما؟!، لا أعرف!!.

لاحظت بعد فترة هدوء المنطقة فسحبت "جوبيتا" من يدها ووقفنا بجوار "إزيه" لكننا لم نكمل بضعة لحظات، واقترب أحد الأشخاص يبدو أنه من "الحريديم" ذو لحية كثيفة وطويلة تتدلى خصلات شعره لتُشارك أذنيه السمع، ويبدو الشَّر في عينيه، أعتقد أنه من هؤلاء النوع المتشدد المجنون بعورة النساء وهذا الحديث الخائب عنا نحن النساء، حاول جذبي أنا و"جوبيتا" لإبعادنا عن الحائط صارخًا بأن هذا لا يجوز، لكن "عامر" و"وليد" هجما عليه وأبعداه عنا سريعًا، يا "أدوناي" كنت قد نسيت باقي المجموعة، اقترب "إزيه" من الرجل وتحدث معه قليلًا فابتعد وهو يردد كلمات وعيد لأننا لا نسمع كلام الرب ونستحق لعنته.

آه لو يدرك ابنة من أنا.. ما كان يجرؤُ على فعل هذا معي، أو ربما أخبره "إزيه" لهذا انصرف مسرعًا، شكرت "عامر"

و "وليد" ففوجئت بتعليق "إزيه" ؛ "ألن تشكريني فأنا من جعلته يبتعد جارًا أذيال خيبته" .

ضحكت أنا و "جوبيتا" ؛ حسنًا شكرًا "إزيه" ، ثم ذهبنا لنكمل شعائرنا ونرجم قبر الحبر الربى "كلونيموس التلمودي" كما أوصانا[1]، وحيينا الشماس ثم عدنا إلى الفندق لننال قسطًا من الراحة.

في اليوم التالي ذهبنا إلى سوق "ماخنه يهودا" في أورشاليم أغلب الأروقة والأزقة مسقوفة بزجاج مفتوح، مليء بالعطور، اشتريت حبوب قهوة كينية، وتناولت "تينا" من رهبان الأرمن أربع كؤوس من عصير اللوز الشهي، واشترت أجبانًا مستوردة وحلوى "حلفا" وزيت زيتون محلي الصنع، خبز يدوي، اشترى "إزيه" كحولًا ونبيذ يدوي الصنع، ارتحنا قليلًا على أحد مقاهي الاكسبريسو المصمَّم على طراز حديث، ثم دخلنا جاليري موري للتصوير التقطنا مجموعه صور معًا.

ثم بدأنا في طريق العودة مساءً إلى مدينتا الجميلة حيفا حيث الكرمل يتجلى ببهاء، حينها علمت لماذا أعشق حيفا فالبحر مع

(١) لأنه يرى نفسه يستحق عقابًا على إحيائه طفل مسيحي كان يظنه يهوديًا.

هوائه ونسيمه، إدمان لا نستطيع الابتعاد عنه ومفارقته كما السمك بدون ماء، بعيداً عن حيفا نكون كاليتامى . .

الآن فقط علمت لماذا يتغنى العرب ممن سكنوا حيفا لسنوات قبل عودتنا، ويتباكون على فراقها وهجرتهم من بين أحضانها .

آه يا حيفا . .

وآه منك يا جبل الكرمل . .

كلنا في عشقك ذائبون .

* * *

8- قتل بوعز

بعد رحلة أورشاليم بشهر حلَّ يوم عيد مولدي الواحد والعشرين المواكب ليوم الحب "الفلانتاين" الرابع عشر من شهر "شباط"، دعاني "عامر" إلى حديقة الحيوانات شاهدت الدبَّ القطبي والأسد وزوجته اللبوءة، مجموعة غريبة من الثعابين منها السام وأخرى مسالمة.

التقط لنا "عامر" مجموعة من الصور بجواله أمام قفص العصافير والطاووس والببغاوات، وأخرى وأنا ألمس السيد قشطه والفيل، لم يُسمح لنا بالاقتراب من الغزال البري، ولكنني أطعمت الزرافة؛ والبجع عندما اقتربنا من بحيرته.

شاهدنا بطًا بريًا وإوزًا، ثم ذهبنا إلى قفص القرود ورأيناها وهي تتقافز بين الأشجار المزروعة داخل قفصها، بجوارها كان قفص الشمبانزي الشبيه بالإنسان.

تذكرت حينها نظرية "داروين" في التطور وكيف يرى أننا في الأصل في فصيلة القرود حاولت تخيُّلَ شكلي أنا و"عامر" لكنني حمدْتُ الربَّ لأنني كنت سأحزن كثيراً إذا حلَّت علينا لعنة الرب وسخطنا قروداً أو خنازير كما يدَّعي "عامر" أنَّه حدث قديمًا.

بعد الانتهاء من جولتنا هنأني "عامر" بعيد مولدي كنت أظنه نسى، سألني ضاحكًا . .

ـ هل يوجد عاقل يولد في شهر شباط يوم عيد الحب ليضيع هديته الثانية؟!

بكل برود استطعت تصنعه أجبته :

ـ وهل اخترت بنفسي اليوم!!، أمرك غريب . .

صمت قليلًا ثم منحني ساعة يد "جس" سويسرية كنت أرغب في شرائها منذ مدة، ولكنني كسولة وفي الحقيبة معها كانت تنام تيوليب حمراء نضرة وجذابة جدًا . .

لا أعرف لماذا اشتعلت النيران في خدّي؟!، نظرت إليه باستغراب ففجر الكون بنيازك سريعة الاشتعال قائلًا :

ـ أحبك جدًا . .

لم تأتني الجرأة حينها لأمنحه أيَّ رد، كنت أسمع دويَّ ضربات قلبي كبحر ثائر يصمُّ أذنيّ، حاولت الابتعاد عنه وإنهاء الموقف؛ فالحب بيننا مستحيل، اقترب ثانية وأمسك يدي ليضيف :

ـ ما رأيك أن نذهب بمفردنا غدًا ضريح الباب .

ـ أريد زيارة برج الساعة وخان العمدان خلال هذا الأسبوع .

ـ لك هذا صديقتي أم أقول حبيبتي؟

لم أَجب ولكنَّ عينيّ وابتسامتهما أجابا، هدوء يدي النائمة داخل يده أجابت بالكثير مما لا قبل للحديث أن يقوله.

* * *

في الرابع عشر من شهر مارس "أذار"[1] دعانا "جيكوب" والد "تينا" لحضور احتفاله بعيد "بوريم"[2]، وسمح لـ "تينا" بدعوة "وليد وعامر".

ارتديت في الحفل ملابس فامبير، أمَّا "تينا" فارتدت ملابس الملكة ماري أنطوانيت، و"جوبيتا" جولدا مائير، "إزيه" ارتدى ملابس حاخام، "وليد" جاء بملابس عربية، جلباب عربي فوقه جاكيت كلاسيكي قديم، وحطَّة وعقال على رأسه، أما "عامر" كنت قد منحته زى دراكولا فلبسه.

مرت الليلة بسلام طلب "وليد" الانصراف، لقد أوشك الفجر على البزوغ، أوصل "إزيه" "جوبيتا" و"وليد" أخبر

(١) يبدأ من نصف فبراير إلى نصف شهر مارس

(٢) يترجم إلى العربية بعيد الفور أو القرعة أي النصيب وأحيانًا المساخر لأنه يتم التنكر في ملابس تاريخية وغريبة ويسرف في شرب النبيذ ليلتها ويسبقه يوم صوم يسمى "تعنيت" تمجيدًا وذكرى لتمكن "استير" من إنقاذ يهود فارس من تسلط الإمبراطور هامان عليهم لذبحهم عندما استعطفت الملك بعد أن صامت اليوم السابق للتقرب إلى الرب ليمنحها البركة والقوة واستحوذت بجمالها على لبه.

"عامر" أنه سينتظره في موقف السيارات عندما لاحظ أنه يريد إيصالي منفردًا.

أوصلني حتى منزلي ثم منحني قبلة صغيرة على كف يدي لأول مرة قائلًا:

"لا تصدقي كل ما يذكره تاريخكم، اقرئي وصدِّقي عقلك وقلبك، لا تغمضي عينيك عن الحقيقة، ابحثي عنها دائمًا مهما كان ما استقيت منه ما تعلمته وتعلمينه الآن".

* * *

استمرت علاقتي جميلة مع "عامر"، كنا في انسجام لمدة عام كامل كان الأروع؛ وثقنا كلَّ أحداثه بالصور، رغم أننا في بداية تعارفنا؛ اتفقنا على زيارة كل المعالم التاريخية وتوثيقها في عقولنا لا في أوراقنا أو صورنا، ربما كنا نوثق علاقتنا دون أن ندري.

ومع هذا اتفقنا أن نظل أصدقاء، فلا قبل لنا بمحاربة أي شخص لنكون سوية، انتهى العام الجامعي بكل ما فيه من اختبارات وشد عصبي ونفسي، وبدأت الإجازة في انتظار النتائج فإما النجاح وإكمال دراساتي العليا، وإمّا الفشل والعيش تحت قيد سخرية عائلتي لفشلي في إنجاز هذا الهدف الصغير وإسعادهم.

* * *

في المساء اتصلت "تينا" تخبرني بمقتل "بوعز" شقيق "إزيه" أخبرت والديّ وصحباني في اليوم التالي لزيارة "إزيه" جلسنا معهم قليلًا، لم تكف والدته عن العويل والبكاء والتأسف على شبابه الضائع.

صبَّت جام غضبها على العرب ككل، واصفة إياهم بالمتوحشين الهمج، فهم من سلبوا منها وليدها، ظلت تلعن فيهم ونحن نسمع في صمت يجلله نهنة كَتْمِ البكاء.

وصل مجموعة من زملاء الفقيد في لواء المظليين[1]، قدّموا العزاء لوالدته ثم سأل أحدهم عن "إزيه" فأشارت إليه، اقترب منه ومنحه هاتف "بوعز" قائلًا إن هذه وصيته الأخيرة.

تركنا ذاهبًا في اتجاه غرفته، لم أستطع مقاومة فضولي فسألته:

ـ أتريدني معك؟

كان الفضول يقتلني، فابتسم ولم يمانع قائلًا: من حسن حظي أنكِ جواري.

هل كان يخشى ما سيجده على الهاتف؟! لا أعلم، سألني:

(١) لواء المظليين: لواء ٣٥، يعمل في منطقة الضفة الغربية، الخدمة تطوعية يتم التدريب لمدة يومين، اشتركوا في الهجوم على الفلسطينيين منذ اشتعلت أحداث الانتفاضة، معروف عنهم العنف الشديد.

ـ لماذا خصني أنا بدلًا من ماما، رغم أنه مرتبط بها جدًا، أو بابا؟!

كان الصمت ردي المقنع.

أوصل الهاتف بشاحن الكهرباء وبجهاز اللاب توب، انتظرنا لدقائق مرت كأنها عام، ثم بدأ يقلب في الهاتف ويبحث عما يجعل أخوه يوصى بهذه الوصية، شاهدنا مجموعة من الصور له وسط القتلى مع زملائه الجنود وبعضها خلفيتها قتلاه هو وزملاؤه من العرب، وصورًا أخرى لأماكن كثيرة خربة مدمرة، كان وسيم الملامح، لونه أبيض متشرب بالحمرة، شعره يميل للون البني، عيناه خضراوان تبدوان شاردتيْن قلقتين، طويل القامة ولكنه نحيف جدًا.

أخبرني "إزيه" أنَّه كان عاشقًا للموسيقى، ويتمنى أن يصبح مطربًا شهيرًا؛ لكن والديه عارضا الأمر، وأخبراه أن الغناء ليس أسلوب حياة مميزة، لن يحميه أو يحقق طموحاته، لكن إن تطوع في الجيش سيصير له مكانةٌ ومركز اجتماعي يفتح له جميع الأبواب المغلقة، واستطاعا إقناعه بالتطوع في الجيش.

أخيراً فتح ملف التسجيلات الصوتية، لنجد مجموعه ملفات معنونه "يومياتي" أضافها إلى برنامج تشغيل الملفات الصوتية بالترتيب وبدأنا نستمع إلى مذكراته أو يومياته كما ذكر.

أغلبها كلمات مفعمة بالألم وشعور بالوحدة والعذاب، كنا نستمع لتتسع صدمتنا مما كان يعانيه أخوه، انتهت التسجيلات فطلب مني بعدها أن أتركه بمفرده، وألَّا أخبر أيَّ شخص مهما كان عن فحوى ما شاهدنا أو سمعنا. .

وعدته بذلك فأنا في العموم أحبُّ التقصي ومعرفة كل ما يدور حولي، لكن لا متعة لدي في إخبار غيري.

* * *

تسجيل

مرَّ على الحصار يومان، كان مكاني عند الجهة الغربية للمدخل الجنوبي للمنطقة، خلف مبنى قديم مهدم، مكانٌ مُقفر مهجور يُثير الغثيان، أشعر بمعدتي كما لو كانت ثعابينُ تنهش فيها، وخيالات تتراقص أمام عيني تغيظني، أشباح من الماضي تظهر وتختفي، عندما أشكو كل هذا للحاخام يُجيبني ببرود "أعصابك تعبة بني خذ فترة راحة، ثم عد لأداء واجبك تجاه الوطن"، يتفاخر والدايّ بابنهم البطل المحارب للأعداء، لا يعلمون أنني أموت كل لحظة عشرات المرات، ما هذا الصوت؟!

اااه، لا شيء أوهامي وهلاوسي تلاعبني من جديد، لمَ الجو بارد رغم أننا في فصل الصيف؟!، كل شيء هادئ، الصمتُ يغرق المكان في كآبة قميئة، من السيء أنه ممنوع إجراء أية محادثة كي لا يتتبع أصواتنا أحد الإرهابيين ونتعرض لهجوم مباغت.

يرتجف قلبي من قسوة ما نعانيه، رغم التدريبات القوية والعنيفة التي مررت بها مع زملائي قبل الانضمام إلى فريق العمليات على أرض الواقع، تربيت على القوة وفرض إرادتي وإلا صرت ضعيفًا أُدهس بالأقدام، لكنني في كل هجوم أو حصار ننفذه ورغم النجاح الذي نكلل به أجد نفسي مبلل الجسد رعبًا،

مُحطمًا نفسيًّا، لماذا لا ننسفهم بقنبلة نووية بدلًا من هذا الرعب المستمر؟!.

للتخلص من قلقي أقوم بتسجيل رسائل بما أمر به إلى أي شخص، لا يهم من!، على ذاكرة هاتفي النقال، قد يسمعها يومًا أبنائي فيتعلمون أن كل هذه الدماء والأجساد الملطخة بالموت لا تستحق ما حدث لها، علهم يدركون ويلوذون بالفرار من مصير يزرعنا فيه قادتنا لرغباتهم هم، نحن نموت فداء شعاراتهم وهم يترنحون من السكر وسط الغواني أو على مكاتبهم يدعون الذعر علينا، ثم هم يتقلدون الأوسمة والقلادات لبطولاتهم الزائفة ونحن نحتضن الموت، نحن نحارب لأجلهم لا لأجل إسرائيل وأرض الوعد المقدسة، كيف لم أفطن لهذه الحقيقة من قبل؟!.

ها نحن كالعادة يُرمى بنا كي نُحاصر غزة.. فخ نقع فيه كل فترة ولا نجد مهربًا أو ملاذًا ينقذنا منها، مهما دككنا من مخيمات أو بيوت دومًا يعودون ويرتدون علينا أسودًا هائجة تقتل فينا، نقتل منهم العشرات بل المئات لكنهم لا يستسلمون، كل فترة نقوم بتضييق الحصار علَّنا نُضعف قوتهم وعلهم يسلموننا الأسلحة والإرهابيين المطلوب القبض عليهم بلا عنف، لكنهم يصرون على القتال يرددون دومًا لا نريد إلا إحدى الحُسنيّيْن أما أنتم فليس لكم

إلا القتل نهاية، كيف يؤمنون أن الموت حسنةٌ؟! كيف سينتصرون علينا ونحن الأقوى؟!، كيف لا يخشون الحرب والموت ونحن؟

وإذا كانوا لا يخشوننا فلمَ نخشاهم نحن هكذا ونموت في اللحظة آلاف المرات أمام جبروت عيونهم؟! ماذا يأكلون ليصيروا هكذا؟ ماذا ترضعهم أمهاتهم؟ حتى نساؤهم لبؤات يفترسن كل من يقترب منهن، يرون الأرضَ شرفا، والجسدَ شرفًا، غريبٌ كل ما فيهم، فنساؤنا مباح استغلالهن لنصرة إسرائيل، أما هم فنساؤهم محرمات كما لو كنَّ أبناء الرب، لمَ أرتعش هكذا؟!، على تقوية قلبي فكما كانت تخبرنا معلمتنا في الصغر نحن القوة ونحن عماد دولة إسرائيل وعلينا الصمود..

* * *

"بوعز" ركز معي؛ لا يصح الغفلة أثناء حصتي، هيا يا أولاد تخيلوا أنفسكم رجالًا ونساءً كباراً وأجيبوني:

من يريد أن يكون بطلًا كما هرتزل الجبار والذي نادي بعودتنا من أرض الشتات؟

من تريد أن تخدم قومها كما جولدا مائير؟

من يريد أن يكون بطلًا كما شيمون بيريز؟

العـرب بـشر لا يعرفـون التنظـيم أو النظـام، مجموعـة مـن الإرهابيين، حفنةً من "الغوييم" مجرد قوم غوغاء، رَحَّلٌ من مكان إلى مكان والآن يزاحموننا؛ رغبـة في الاسـتيلاء علـى مـا وَعَـدَنا بـه الرب من ملك وسلطان، سنقيمه آخر الزمان علـى هـذه الأرض، أورشـاليم- القـدس، أريتز- إسـرائيل الحـرة الممتـدة مـن النيـل إلى الفرات، يطمعون في أملاكنا وعلينا المحاربة لاسترداد حقوقنـا مـن نيل مصر حيث ارتحل "موسى" إلى نيل الفرات حيث الجـد الأكـبر "إبرام".

عليكم تذكر مقـولات قادتنـا علـى الـدوام ومـنهم دافيـد بـن جوريـون مؤسـس دولتنـا والـذي قـال: "إن الـدين هـو وسـيلة مواصلات فقط، ولذلك يجب أن نبقى فيها بعـض الوقـت لا كـل الوقت، وأن الجيش هو خير مفسِّرٌ للتـوراة"، علـيكم الحـذر مـن الانسياق خلف الأوهام كما رابيين كي لا تنالوا نهايته.

تذكروا ما قاله أوسـكار ليفـى: "نحـن اليهـود لـسنا إلا سـادة العالم ومفسديه ومحركي الفتن فيه وجلاديه، فـنحن اليهـود نملـك دينًا لا يستحقه ولا ينال شرفه غيرنا نحـن، نحـن دولـة قامـت بقـوة العـصابات المـسلحة والميليـشيات الخاصـة، عمـاد أمتنـا الجـيش، مستعمراتنا يتوازي فيها الدفاع مع الزراعة، الأمن وتـأمين كـل مـا

هو يهودي هو أسلوب إدارة دولتنا الناشئة بقوة، نظام الحكم لدينا ذو ديمقراطية عسكرية، علينا الدفاع بكل ما أوتينا من قوة عن شعبنا ودولتنا وأرضنا، فنحن في خطر دائم، وإذا أردت أن تكون من ضمن صفوة المجتمع عليك أن تكون عسكريًا " .

في التلمود " يجب على كل يهودي أن يسعى لأن تظل السلطة على الأرض لليهود دون سواهم، وقبل أن يحكم اليهود نهائيًا باقي الأمم، يجب أن تقوم الحرب على قدم وساق، ويهلك ثلثا العالم، وسيأتي المسيح الحقيقي، ويحقق النصر القريب، وحينئذ تصبح الأمة اليهودية غاية في الثراء؛ لأنها تكون قد ملكت أموال العالم جميعًا، ويتحقق أمل الأمة اليهودية بمجيء إسرائيل، وتكون هي الأمة المتسلطة على باقي الأمم عند مجيء المسيح " .

علينا السعي لتنفيذ مشيئة الرب إلوهيم والمساعدة في مجيء المسيح سريعًا وعقاب الغوييم، علينا الاستيلاء على مصر فكما ذكرت التوراة[1] :

" هو ذا الرَّبُّ راكبٌ على سحابة سريعة وقادم إلى مصر، فترتجف أوثان مصر من وجهه، ويذوب قلب مصر داخلها، وأُهَيِّجُ مصريين على مصريين!! فيحارب كل واحد أخاه، وكل

(١) سفر أشعياء النبي (١٩/١ : ١٠)

واحد صاحبه! مدينة مدينة، ومملكة مملكة، وتُهراقُ روح مصر داخلها، وأفنى مشورتها فيسألون الأوثان والعارفين وأصحاب التوابع والعرافين، وأغلق على المصريين في يد مولى قاس فيتسلط عليهم ملك عزيز يقول السيد رب الجنود وتكون عمدها مسحوقة وكل العاملين بالأجر مكتئبى النفس " .

هذا ما نجحت نخبتنا العسكرية في تنفيذه من خلال الاستخبارات القوية "الموساد والشاباك" وقد تدربوا على أحدث الأنظمة بقيادة أفضل العناصر الإسرائيلية . . .

* * *

معلمتي . .

هل الأمر يستحق أن تضيع حياتي وسط كل هذا الصخب؟

متى سأستمتع بحياتي إن كان كل ما أفعله هو إطاعة رؤسائي طاعة عمياء في سبيل المجد لإسرائيل؟

متى سأكون أنا والكل يطالبني بتحقيق نبوءة لا أعرف عنها إلا ما ذكرتموه لنا صغاراً؟

متى سنكف عن حمل زملائنا إلى المقابر؟

متى ستتركني الكوابيس حتى وأنا يقظ؟!

لا ليست كوابيس بـل هـو كـابوس واحـد، يُفَتِّـتني كـل ليلـة كابوس واحد يتكرر، أرى نفسي أتصاغر في منتـصف دائـرة كلـها من العرب، تسجنني ضحكات سخريتهم، ومن بعيد هناك عيـون دموية تنتظرني أمام الـشفيع، وعنـدما أسـتطيع الفـرار أرى نفـسي مُتفحمًا في تابوتي الخشبي المدفون في جبـل "هرتـسل" بأورشـاليم كما رغبت ماما..

"بوعز" انتبه قادمة إليك من ناحية الشرق، اخرج سريعًا..

* * *

يا أدوناي مـا هـذا الـبرق والرعـد؟!، أحـترق.. أحـترق.. أنقذوني.. إنني أشتعل، أنجدوني لا أريد الموت،

"ليشع"..أنقذني أخمد هذه النيران..

"بوعز"

"بوعز" صديقي أعتذر لأنني لم أستطع نجدتك سريعًا..

"بوعز" أجبني..

همس بضعف ووهن..

لم ألمح أن المبنى مكشوف السقف؟!

فجأة أضاءت الأنوار المبنى، ثم ملئت السماء بنجوم كثيفة التواجد، "ليشع" سحبتني شوكة الشيطان كما فراشة غرت ببريقها، لأرقص رقصة الفناء..

خذ هذا الهاتف الملقى هناك على الجانب، أوقف التسجيل وسلمه إلى أخي "إزيه" هذه وصيتي الأخيرة..

"بوعز".. "بوعز"..

* * *

9- الدنس

مرَّت الأيام بعد هذا الحادث كئيبة، تتقابل المجموعة أثناء العطلة كل ثلاثة أيام أما "إزيه" ففي الغالب يتهرب من هذه المقابلات خاصة بعد أن طلب من والدي مساعدته للانضمام إلى الجيش كما أخيه "بوعز" للانتقام ممن قتله، أوصاني ألا أُطلع أيًّا من أفراد المجموعة على الأمر حتى ينفذ بابا رغبته فعليًا وينضم للواء "غولاني".

لم ننفرد أنا و"عامر" إلا مرةً واحدة، دعاني لتمضية اليوم في محاولة لأن نعيش يومًا في سعادة نخزِّنه في ألبوم ذكريات العقل، كانت الأمور هادئة في الفترة السابقة حتى رآنا "يهوشع" في النزهة الأخيرة وأنا ممسكة يد "عامر".

لم أره، لكن عندما عدت إلى المنزل مساءً وجدت الثلاثة في انتظاري والدايّ وأخي لأقابل بوابل من الكلمات الجارحة، واستفسارات كثيرة مثل..

كيف أرتبط بفلسطيني؟

كيف أصادقه إلى هذا الحد؟

بل كيف أحب مسلمًا؟

كيف أسمح لنفسي بتدنيسهم هكذا؟!

فوجئت أنهم فتشوا حجرتي وحاجياتي ووجدوا هداياه وبطاقات المعايدة والصور التي تجمعني و"عامر"، عندما ثرت اعتراضًا على اقتحام خصوصيتي، كانت النتيجة التهديد بالضرب والحبس في غرفتي كي أفيق مما أنا فيه، يمكنني إبلاغ البوليس عن عنفهم معي، لكن كيف سأشوش على نفسي ولا قبل لي بكل هذا؟!.

اتصلت بـ "عامر" أخبرته بما حدث وطلبت منه أن يأخذ حذره، فلا أعلم ما قد يقوم به بابا لمعالجة الموقف من وجهة نظره، لقد خشيت أن يتسبب في اعتقاله، وطلبت منه أن يطمئن علي هو وباقي المجموعة، هي فترة وستمر وسنبقى أصدقاء كما نحن لن تؤثر فيَّ أفعالهم.

* * *

10- منزل عامر

ـ لم أصدق زوجة عمك عندما أخبرتني أنك جالس على سطح الدار منذ ساعتين، يتندرون عليك بالأسفل ويقولون عاشقٌ متَّيمٌ صعد يعدُّ النجومَ ويتغزل في القمر بالأعلى، والشقية أختك "حسناء" أضافت بعد أن حدثته "تويفا" تبدلت ملامحه وعاد إليه نبض الحياة من جديد، كم نجمة وجدت عددهم؟ صحيح حتى "حسان" و"غسان" غاضبان لأنك تركتهما وصعدت دون أن تحضر لهما الحلوى كما وعدت.

ـ بعد قليل أخرج لأحضر لهما ما يريدانه!.

ـ لا عليك منحت كل منهما خمسة شيكل وخرجا يتسابقان ليحضرا ما يريدانه.

ـ أخذت قيمة ما رسمته من لوحات مدرسية إذن أيها المسرف؟!

ـ لا تغير الموضوع لمَ تبدو ضائعًا هكذا؟ ألازلت قلقًا على "تويفا"؟

ـ عائلتها يعاملونها بخشونة بسبب صداقتنا.

ـ هل هي صداقة؟ يبدو أن الجميع يراها حبًا إلا أنت!!.

ـ الجميع من؟! إنهم يمازحونك فقط.

ـ لا.. لا يمزحون فقط، لقد طلبت مني والدتك أن أحدثك في الأمر فقلُبها مضطرب ويوسوس لها بالكثير قلقًا عليك بسبب علاقتك بـ "تويفا" تقول إنَّ أباها إذا علم لن يمر الأمر بسلام وقد يفعل أيُّ شيء ليبعدك عن ابنته.

ـ لا تبالغ، ثم نحن مجرد صديقين قريبين من بعضهما فقط لا شيء آخر صدقني.

ـ أتمنى لو أستطيع لكن كل الشواهد تؤكد العكس، وهذا ما لا أستوعبه ولا أستسيغه.

ـ لا تستسيغ ماذا؟

ـ عندما تأتي لزيارتنا ترتسم علامات الرعب على وجهها، ألا تذكر كيف تمشي بيننا حذرةً يقتلها الخوف من أن يتعرض لها أيُّ عربي بالسوء، هي ترانا أعداءً، صحيح استثنتنا نحن وعائلتنا من هذا الأمر لكنها تخافنا حدَّ الجنون بدليل ما فعلته أثناء رحلتنا إلى القدس، لماذا كانت مصرة على إخفاء هويتها وتركنا في المواجهة دوما؟!، أعتقد أنها كانت تشك فينا وتعتقد أننا سنقوم بعملية انتحارية يا رجل؟

ـ لا تظلمها، ثم إنها تربَّت منذ نعومة أظافرها على أننا أعداء، كل ما نفعله هو قتل ذويها، لكن مع الوقت بدأت تثق فينا وترى الوجه الآخر الذي أخفاه عنها وعن كل اليهود، معلموهم وحاخاماتهم وحتى ساستهم.

ـ حسنًا رأت الحقيقة ماذا فعلت بعدما عرفتها؟، هل ستقبل العيش معنا في المناطق العربية؟ ماذا ستخبران أولادكما عندما يسألون لماذا خالي يكرهنا هكذا ولمَ أبناء عمي يتجنبوننا؟

ـ هل ستقاطعني إذا تزوجتها؟

ـ لا تغير الموضوع، ثم هل قررت الزواج منها؟؟ حسنًا هل فكرت في ولدك منها ورأيته أسيرًا أو معتقلًا يعذب بيد أبيها؟ هل فكرت في مدى التذبذب الذي سيعيش فيه أبناؤك وهم يرون عائلاتنا تتصارع ولا يطيق بعضهم البعض؟

ماذا ستخبرهم عن هذه الحرب الدائرة؟

يا ترى إلى أي فريق تعتقد أنهم سينضمون؟

أتذكر العم "وصيف" وابنته؛ التي صارت على دين أمها يهودية وفضلت العيش معها، وعندما أجبرها على الحياة معه ظلت كما لصٍّ متخفٍ بيننا بعد أن انضمت إلى "الشين بيت"

وكانت توقع الشباب الفلسطيني في حبائلها ليتم تجنيدهم ضدنا، ولولا أن العم "وصيف" أبلغ عنها المقاومة ثم قتلها بيده ما كنا علمنا..

إذا قتلني أحد ضباطهم ماذا ستخبر ولدك عني؟، هل تقول له إرهابيًّا مُخربًا مات أم مناضلًا عن قضية شرف وكرامة استشهد؟

ـ لن نصل إلى هذا الحد لماذا تؤزم الأمر؟!

ـ ماذا ستخبر أبناءك عن فلسطين وإسرائيل يا "عامر" هل ستخبرهم عاد الابن التائه إلى أرض ميعاده؟ أم استولى الصهاينة على أرض الأجداد وزيَّفوا التاريخ والوقائع وقتلوا شعبنا؟

ماذا ستخبره عن عمليات القتل والتذبيح المستمرة ليل نهار؟

كيف ستصف له الانتفاضات التي نقوم بها لننال حقنا المنهوب؟!

ـ ليس كلُّ يهودي صهيوني هناك فرق.

ـ "تويفا" ليست صهيونية لكنها ليست عربية، هي مؤمنة بأننا شركاء في الأرض، لكنها لا تؤمن بأن ذويها قتلة ولا حق لهم في الأرض؟ يعيشون على أنقاض ذكرياتنا، "تويفا" ترى قَتْل أبيها لأفراد المقاومة من الأمور المشروعة لأننا

نهاجمهم، لا ترى أننا ندافع عن كرامتنا وأرضنا وعزنا، وعن أرض أجدادنا وأحفادنا من بعدنا.

- "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ"[1] و "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعلم بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أعلم بِالْمُهْتَدِينَ"[2]

ربما تكون هي أحد المهتدين فسأقنعها، وسأثبت لها زيف أقاويلهم عنا، هي فعلا بدأت تقتنع بنا ومع الوقت ستتغير أفكارها وقناعتها كليًا.

- ويقول أيضًا "إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ" والحديث الشريف يضيف: "لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه يهودي- يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله"

كيف ستفسر لها قول رسولنا عن هذا الأمر؟

كيف ستفسر لها أننا نراهم قومًا مفسدين ملعونين حتى يوم القيامة؟ هيا فسر أيها الداعي للسلام!!

---

(١) سورة فصلت- الآية (٣٤)

(٢) سورة النحل- الآية (١٢٥)

ـ سأشرح لها كل شيء بالتفصيل كما يشرحه لنا علماؤنا وشيوخنا، وتعلم أنني مؤمن بوجوب وجود يد من حديد تضرب؛ ويد أخرى تهادن لا تأخذ الدنيا علًى مطلقها بالقوة.

ـ ليس هؤلاء من يهادنوا، هل تحبها حقًا أم هي مجرد نزوة ومغامرة تريد خوضها؟

هل ستدعوها إلى الإسلام وتجعلها تعلن إسلامها؟

ماذا ستفعل وفي شريعتهم يسجل الأولاد كيهود طالما والدتهم يهودية وحتى إذا أعلنت إسلامها ستظل يهودية في نظرهم؟

ـ بالتأكيد أحبها ولن أجبرها على الإسلام، عليها هي اختيار ذلك، ديننا يحثنا على الإيمان بكل الأديان، أما ما يخص الأولاد ربما لا ننجب وإذا أنجبنا سأربيهم أنا وأمي على عادتنا نحن وديننا.

ـ ستربيهم أنت وأمك هل تتزوج لتربي أمك أولادك؟

هل ستتركك "تويفا" تفعل ذلك وتبعدها عنهم؟!

ألن تحاول زرع أفكارها داخل رؤوسهم؟ هم أبناؤها أيضًا!

من حقها أن تفعل معهم ما تريد، وأن تربيهم بطريقتها هي، ماذا إذا اختلفتما هل ستترك لها الأولاد؟

هل تعتقد أنها ستتركهم في الأساس؟ .

ـ ما كل هذه الأسئلة، أوقف سيل هجومك، لم أفكر في الأمر، لم تتطور علاقتنا بعد، لازلنا في البداية إنكَ تستبق الأحداث كثيراً، أنا وهي متفقان على الحفاظ على الأمر طي القلوب والحفاظ على علاقة صداقة فقط، لم نتماد في الحب ولن نتزوج .

ـ القلوب بيد الله يقلِّبُها كيف شاء، ماذا ستفعل بعد انتهاء الدراسة، فلن تستطيع رؤيتها كثيراً بعد الآن، هل ستحتمل غيابها أم ستحارب الغياب والعادات والتقاليد؛ وتنحِّي الصراعات جانبًا وتذهب إليها خاطبًا؟ تعتقد هل سيوافق والدها؟

ـ . . .

ـ إذًا تعرف أبعاد الموقف، فلمَ تستمر معلقًا نفسك بالآمال الواهية وتضع نفسك موضوع شبهات مع أصدقائنا في المقاومة، هل ستهرب معها؟ تعلم أن القتل مصيرك ومصيرها إن لم يكن بيد هذا فبيد هؤلاء، لا تجعلني آخذ ثأرك من أيهما، لا أريد السير في جنازتك يا بن العم، لن يحتمل قلبي أن أراك معذبًا إذا قتلوها بسبب حبكما .

ـ أنا من سيسير في جنازتك يا بومة .
ـ أحب ما على قلبي المهم أن تكون أنتَ بخير .
ـ لا تقل هذا سأفرح بزواجك من "هناء" كما تريد زوجة عمي وسأربي أبناءك وألاعبهم، ستسمي الأكبر "عامر" صحيح؟
ـ تزوجت الوطن، يمكنك أنت أن تسمي ابنك باسمي .
ـ ربما . . . .
ـ هل سترهبن لأجل "تويفا" الرهبنة حرام في ديننا يا رجل .
ـ بل سأتزوج أربعةً وأنجب اثني عشر طفلًا أسميهم "وليد"
ـ أفلح إن صدق . .
أتعلم أعتقد أن هذا من الأسباب الكافية لتبتعد عنك "تويفا" نهائيًا، أربعة زوجات، ستجعلها تجن يا هذا، يا الله يا لك من مجنون .
ـ ها لنرى ماذا جهّزوا للعشاء سأموت جوعًا، أريد الجلوس معكم جميعًا الليلة لنتناول عشاءً فاخرًا من صنع يد أمي .
ـ هل ستشاهد معي حلقة السيدة "تريز" سكرتير مكتب الرئيس؟، ستحكي عن ليلة اغتيال السيد "عزيز" زوجها

وعن مقتل أولادها ونوَّهت القناة الأولى أنهم سيستضيفون آخرين لاستكمال أحداث هذه الليلة.

ـ نشاهد فالليل طويل لا مانع.

* * *

جلس الجميع لمتابعة البرنامج، هاتفني "عامر" لأتابع البرنامج معه، عندما فتحت التلفاز كانت المذيعة بدأت اللقاء بتحية رقيقة للسيدة "تريز"، ثم بدأت في طرح الأسئلة عن الوضع الراهن في الأراضي الفلسطينية، وتعنت حكومتنا بما أسمته حكومة الاحتلال في التعامل مع كل ما هو عربي فلسطيني..

سألتها؛ هل يمكنك سرد ما حدث يوم وليلة اغتيال السيد "عزيز"؟ كيف تلقيت الخبر؟

هل صحيح جاء الرئيس شخصيًا إليك في منزلكِ لإعلامك بالأمر وأخبرك بكل ما دار بينهما يومها؟!

كانت إجابتها هادئة رزينة سأخبركم بما تحدثت عنه كمجمل..

* * *

فلاش باك

كما فراشة كنت أتنقل بين الأثاث وأوزِّع عبير عطرها الهادئ داخل أرجاء الشقة، وضعت زهوراً برية في هذا الركن وباقةَ ورد جوري في ركن آخر بعد أن أنهيت ترتيب الشقة وتزيينها لتلائم مناسبة الليلة، كنت طهوت عدة أصناف مما يشتهيها ويفضلها زوجي، ارتديت ثوبًا أبيض يماثل ثوب زفافي. .

نظرت في المرآة بتمعنٍ وظللت أدور لأتأكد من إبرازه مفاتني، أريد أن أبدو كما مارلين مونرو، وضعت القليل من الحمرة على خدّيّ، وأحمر شفاه بلون أحمر لامع، ثم رسمت خطًا أزرق بالكحل على حدود رموشي، حركت شعري قليلًا ليكون بشكل فوضوي كما الغجر الأسبان، كنت أريد محوَ ذاكرته ليكون طفلي لهذه الليلة.

نظرت إلى ساعة الحائط، كانت الثامنة والنصف مساءً، حدَّثَتُ نفسي لم يتبقَ إلا نصف ساعة حتى يصل حبيبي ونحتفل سوية بما يعوِّضنا كل ما حدث الصيف الماضي، يبدو أنه كالعادة انشغل في عمله، ونسى الليلة وأنه كان يرغب في الانصراف باكراً. .

لا يهم فالليلة سأخفف مما يعانيه من سوء وشعور بالذنب، سنعيد إحياء أيام الصبا والشباب الليلة وسنقضى ليلة من ألف ليلة

وليلة، لا أصدق أنه قد مرَّ على زواجنا خمسةَ عشر عامًا مليئة بالأحداث ما بين الحلوة والمرة، ما هذا الصمت لا مجال للهدوء والصمت اليوم سأشغل بعض الموسيقى.

صدحت أم كلثوم متغنية "بعيد عنك حياتي عذاب بعيد عنك.." عبر سماعات اللاب توب ثم توجهت إلى الشموع لإشعالها وأنا أرقص وأغني، ها هو لم يتبق غير خمس دقائق ويدق الباب معلنًا وصوله قبل أن يدخل، أحب فيه مواظبته على هذا التصرف؛ مما يسمح بثوان أضبط فيها أي شيء قد لا يكون في مكانه المعتاد وسرقني الوقت قبل مجيئه لأنظمها مبكرًا.

هل أطفئ الإنارة ليتصرَّف حسب ما اعتاد على طبيعته بتلقائية ثم أفاجئه؟، سيأتي كعادته مرهقًا يجد الإضاءة خافتةً أو مغلقة فيضُيئها ثم يرتمي على أوَّل مقعد في غرفة المعيشة متذمرًا حبي للظلام، يسحب ريموت التكيف لإغلاقه قائلًا ستمرضين يومًا بسبب هذه البرودة الصناعية ولن أحتمل مرضك فراعي قدراتي على عدم احتمال ألمك، ماذا جهزت فاتنتي للعشاء اليوم؛ فزوجك جاهز لالتهامك شخصيًا إذا لم ينل إعجابه ما صنعت؟

لا.. ربَّما الأفضل أن أترك الإنارة وأنتظره أمام الباب لأغمي عينيه؟ يا يسوع خمس دقائق تفصلني عن حبيبي وجنته، سأذهب

غداً إلى كنيسة القيامة لأصلي شكراً للرب على منحي إياه وأدعوه ليحميه ويحفظه لي ويعوِّضنا عما فقدناه، أخيراً ها هو وصل فوقع أقدام على السلم، حسنًا سأفتح الباب اليوم ثم أطلب منه أن يُغمض عينيه.

اقتربت من الباب قائلة في موعدك بالضبط حبيبي، وفتحت لأجد مفاجأة، فلم يكن زوجي الأشقر الأبيض، ذو الملامح الفرنسية الشقية والعينين الخضراويْن، ليس زوجي قصير القامة نحيل الجسد، بل كانت ملامح شرقية عربية أمامي.

ـ سيدي الرئيس؟!.

* * *

فوجئت بمن يقف أمامي، في أقل من ثانية غرقت في بحر الشك، فقد كانت الأفكار تعصف بي، ظننت زوجي دعاه ليسهر معنا، هل نسى ثانية ما اليوم؟! هذا العام مختلف فأحداثه كانت تفوق الاحتمال ومررنا بها فقط لأننا معًا، كان التحدي هذه المرة أشد بشاعة؛ فكيف فعل هذا ودعا شخصًا آخر أيًّا كان ليشاركنا احتفالنا؟! وأخيراً نطقت..

ـ سيدي الرئيس؟!

أهلا سيدي الرئيس، تفضل.. تفضل، أين "عزيز"؟!.

منحني قطعه معدن وعليها علبةً مفتوحة بداخلها القلادة في صمت.

ـ لماذا يكرهوننا هكذا؟ لمَ يقتلوننا؟! (هكذا تساءلت شبه مغيبة) فأجابني بهدوء..

ـ لأننا فلسطينيون عرب، نحاربهم لنيل حقوقنا ونحاول إثبات كذبهم وخداعهم أمام العالم أجمع و"عزيز" يساعدنا رغم أنه يهودي، وفضَّل العيش بيننا، ولأنك مسيحية عربية، نحن لهم طبقة أدنى من أن يختارنا "عزيز" ويفضلنا عليهم طيلة خمسة وعشرين عامًا، فكيف يختار العمل مع السلطة الفلسطينية؟!.

ـ إذن تركني "عزيز" وحيدة لهم.

ـ بل كلُّنا معك، لم يكن "عزيز" من يحبك فقط، أنت أم وجدة لأولادنا، نحن وكلُّ من تعامل معك، الكل يحبك ولا يمكنك إنكار هذا، الحب ليس "عزيزًا" فقط، بل نحن أيضًا والوطن وجيرانكِ كلنا هنا لأجلكِ "تريز" ونحبكِ وسنبقى معك.

ـ كيفَ حدث هذا؟!

ـ سأقصُّ عليكِ كل ما حدث قبل الحادث، تستحقان مني هذا، كما أنكِ معنا وتعلمين طبيعة عمله وتساعدينه فيه . .

* * *

ـ أهلًا وسهلًا . . مرحبًا سيد "عزيز" .

ـ كيف أحوالك سيدي الرئيس تبدو بصحة جيدة؟

ـ بخير . . بخير فالأطباء لا يتركون هفوةً تحدث قد تضرُّني .

ـ يا رب بخير دائمًا سيدي الرئيس .

ـ هل أنجزت ما طلبته منك الأسبوع الماضي؟

ـ نعم هذا ملف مسودة التعديلات المطلوبة على بنود اتفاقية إقامة المنطقة التجارية مع الجانب المصري والإسرائيلي، وهذا ملف الأسرى في المعتقلات الصهيونية، الأعداد والأسماء بالتفاصيل الخاصة بكل أسير، مع ملاحظة تبين المشاكل التي يتعرض لها، ومجموعة من المقترحات تمكنَّا من المطالبة بإطلاق سراحهم، وهذا ملف بعدد من يطالبون ببطاقات الهوية أو تصاريح إقامة مؤقتة وتتعنت الحكومة الإسرائيلية معهم دون أسباب حقيقة، وهذا الأخير ملف يُظهر إحصائية بأعداد من تزوجوا بيهوديات إسرائيليات ويقمن في مناطق السلطة الفلسطينية؛ مقسمًا حسب

جنسيتهم سواء مصريين أو فلسطينيين، وتوجد إحصائية بعدد من يقيم منهم في المناطق الإسرائيلية بتصاريح مؤقتة.

ـ الجانب المصري مهتم بهذا الملف جدًا، لذا أوليه عنايتك الخاصة، هل اختلف العدد عن آخر إحصائية راجعتها معي الشهر الماضي؟.

ـ زاد العدد خاصة في منطقة الشريط الأخضر.

ـ بالنسبة لفرضية التعايش السلمي فهو أمر جيد يثبت أنهم أصبحوا يتقبلون الأمر، أتمنى أن يكون الأمر كذلك وألَّا ينتهي بكارثة، على حكومة إسرائيل الكف عن تعنتها لكي لا نخسر جميعًا، خاصة وأنها دومًا تختار أساليب تؤدي إلى عدم حقن الدماء بل سفكها لمجرد العناد.

ـ تعلم سيدي إن الصهيونية لا تفكر إلا في مصالحها الخاصة ولدت بالخديعة والدهاء واستمرت على قيد الحياة ببحار من الدم؛ فماذا تتوقع منها أكثر؟!.

ـ من يعلم عنهم أكثر منك، صدقت "عزيز"، لكنني أتوقع منها ظهور "عزيز" آخر بل كثيرون؛ يدركون الحقيقة ويفرون بعيدًا عنها للنجاة بأرواحهم وأرواح ذويهم والحفاظ

على أرواح من وطنّهم وما ضمهم تحت جناحيه وقت حاجتهم إليه بكل حب ووود.

ـ صعب سيدي فهم يقومون بعمليات غسيل مخ للجميع بدأً من نعومة أظافرهم، ولكي نتفوق عليهم علينا محاربتهم بنفس السلاح "وداوِها بالتي كانت هي الداء".

ـ لا يمكننا اتباع نفس الأساليب القذرة مستغلين النساء والأطفال كيف تقترح هذا الاقتراح؟!

ـ لن نستغلهم سيدي فقط علينا التركيز على إبراز النقاط التي من خلالها يهاجمون العرب وحقهم في أرض فلسطين كي نفندها ونرد على كل ادعاءاتهم بالأدلة والبراهين، علينا الانتشار عبر وسائل الإعلام ووسائل الميديا جميعًا حينها سيستمع الجميع لنا وسيحكمون لنا لأننا وضعنا أمامهم الحقيقة كاملة لكي يحكموا بعقل.

ـ أعتقد أنني سأموت قبل أن يأتي هذا اليوم.

ـ بعد الشر سيدي لا تتشاءم الأمل موجود، دائمًا موجود.

ـ ربما أنت تستطيع تنفيذ هذا الاقتراح "عزيز" فأنت بشخصك وبحبك وتحديك لكل ما أحاط ويحيط بك خير دليل على صدق ما نُطالب به، ودليل على صدق نوايانا مع

الجميع، لسنا حفنة من الإرهابيين القتلة كما يزرعون في رؤوس مشاهدي وسائل الإعلام الخاصة بهم، ولسنا عاشقين للدماء وسفكها لمجرد المتعة كما يتهموننا، لدينا أخطاء لن أنكر، لكننا لا نقتل لندخل الجنة كما يدعون، نحن نضحي بأرواحنا لهدف سامٍ وهو الحفاظ على عرضنا وكرامتنا وأرضنا ولأننا على الحق سيكافئنا الله بإذنه تعال بالجنة، لكنهم لا يستوعبون كل هذا.

- لا يريدون الاستيعاب وهذا الفرق، لذا مهما فعلنا لن يستمعوا إلينا، لهذا علينا توجيه خطابنا للشعب ذاته عرب ويهود ومسيحيين، علينا أن نثبت لهم مَن القاتل الجبان ومن المجني عليه، من المحتلة والمنهوبة أرضه ويُنتهك عرضه؟، جهزْت ملفًا إضافيًّا فيه خطوط عريضة عن ما يجب علينا تنفيذه خلال الفترة القادمة بما يساعد على إيصال أفكارنا وآرائنا ومعلومات صحيحة عنا للإسرائيليين في الشارع، سنصل إليهم داخل أحيائهم لن يأتوا هم إلينا لأنهم لن يفعلوا، وقتها هم من سيسحبون الثقة من حكومتهم الغاشمة، وسيقفون في وجهها ويُجبرونها على احترامنا والتعامل معنا على أننا شركاء وطن حقيقيين.

ـ ليتنا نستطيع تنفيذ هذا، ستكون الضربة القاضية ولـن نخـسر شيئًا علينا المحاولة، دعك من العمل الآن وتعـال جهـزَّتْ "أم جنة" طاولة عشاء فلسطينية شهية كما أخبرتني منذ قليل.

ـ أعتذر سيدي الليلة بالذات لا يمكنني هذا؛ فاليوم هو ذكـرى زواجي الخامس عشر.

ـ يا الله هل مـرت كـل هـذه الـسنوات؟!، لقـد كبرنـا للغايـة لازالت كل الأحداث في ذاكرتي وكأنها بالأمس، خمـسة عـشر عامًا على زواجك وخمـسة وعـشرون علـى انـضمامك إلينـا، أوصل سلامي لـ "تريز" وقبلها بالنيابة عني وعن "أم جنة".

ـ سأفعل بكل سرور.

ـ هل أحـضرت لهـا هديـة أم أرسـل شخـصًا لإحـضار هديـة خاصة سريعًا؟

ـ انظر سيدي عقد ذهبي تتدلى منه دلاية على شـكل قلـب مـن المـاس الأبـيض، وتوجـد بالـسيارة باقـة مـن زهـور البنفـسج والياسمين تعشقهما جدًّا وستفرح بهما للغاية.

ـ إذن لديك مشاغل مهمة الليل، هيا انـصرف اليـوم سمـاح؛ مـسموح بالانـصراف مبكـرًا سـاعة لأجـل خـاطر عـينيّ "تريز"، نراك غدًا ولا تتأخر.

ـ بإذن الله شكراً سيدي الرئيس .

* * *

بعد عشر دقائق من خروج "عزيز" سُمع صوت انفجار هائل لتدوي صافرات الإنذار، ومن داخل مكتب الرئيس سُمع صوت هرج ومرج شديد، فخرج يلحق به ثلاثة من أفراد الأمن الذين أوقفوه في محيط مكتبه داخل مكتب السكرتارية، رأى عبر الباب الخارجي للمكتب الموظفين وهم يجرون متخبطين في بعضهم، حاول الخروج فمنعه أفراد الأمن، ثم دخل إليه ثلاثة آخرون من أمن الحراسة الخارجي فصرخ فيهم :

ـ ماذا حدث؟ هل الجميع بخير؟ هل تأذى أحد؟

ـ كانت سيارة السيد "عزيز" مفخخة عندما أدارها انفجرت بعد دقيقة واحدة، لم نستطع إنقاذه .

ـ يا الله كان ذاهبًا ليحتفل بعيد زواجه الخامس عشر مع زوجته في المنزل، ماذا فعل ليحدث له كل هذا؟، كيف سأخبر زوجته بالأمر؟، ألا يكفيها أن طفليها الصيف الماضي قتلا على يد متطرف يهودي فرَّ من العقاب بعد إثبات جماعته أنه يعاني من خلل عقلي، لماذا رفضت اقتراحي بتوفير حراسة يا

"عزيز"؟!، ماذا سأفعل الآن يـا رب ألهمـني القـدرة والقـوة على مواجهة "تريز"؟!.

ـ عليك سيدي الدخول إلى مكتبك فهو أكثر أمانًا.

ـ هل هناك مصابون؟ هل تأذَّى شخص أخر؟ ما مدى الـضرر الذي حدث؟

ـ لم نحدد مدى الضرر بعد، ولا يوجد مصابون سيدي، فقـط السيد "عزيز" مستشار سيادتك الذي تأذَّى فهو المقـصود مـن التفجير.

ـ كيف عرفت؟

ـ وجدنا في محيط الانفجار هذه القطعة منقـوش عليهـا: "هـذا جزاء الخائن، جزاء من يبيـع اليهـود ليـشتري العـرب، يحـرق تحريقًا هو وأبناؤه ومن باعنا لأجلهم".

ـ هو تهديد إذن للجميع بالقتل، لا تعلنوا الخـبر الآن وجهـزوا سيارة، سأذهب إلى "تريـز" أريـد أن أكـون أول مـن يُعلمهـا بالأمر، تستحق منا هذا.

* * *

ـ هذا هو كل ما حدث، أعتقد أنه للنهاية كان يفكر فيكِ.

ـ نعم كان يفعل لقد اتصل على الجوال.

ـ أنتظر منك أن تكملي طريقه وعمله معنا، أيمكنك هذا؟!
ـ أحتاج لبعض الوقت، ربما بعد أن استوعب كل هذا أفكر في الأمر، فلقد رحل "عزيز"...
ـ سأترك حراسة أمام المبنى، وسيصطحبك أحد الحراس إلى المستشفى، سأكون إلى جوارك فلا تترددي في أي طلب.
ـ أشكرك سيادة الرئيس.

* * *

ـ هل يمكننا معرفة فحوى المحادثة مع السيد "عزيز" ليلتها؟
ـ طلب ليمازحني، "تريز" الحبيبة قادم إليك سأحاول اليوم أن أقترب منك أكثر وأعوضك عن كل ما مررنا خلاله؛ علني أمسح بعضًا من أوجاعك عنك وأزيلها، أعلم أنه من المستحيل نسيان ولدينا "ديفيد وجوزيف" سيظلون بالقلب أحياء وبالعقل شهود على جرائم ضد الإنسانية يتغافل عنها البشر لأنها ستضر بمصالحهم.
ـ يكفيني أنا وأنتَ "عزيز" أنهما قتلا بعد أن صليَّا للرب وباركهما القس "سمعان"، الربُّ راضٍ عنهما كما نحن راضيان حبيبي.

ـ سأجعلكِ توافقين على رقص التانجو معي، لن أتنازل وأقبل رفضكِ مهما كان عذرك، فالليلة أنا وأنت أيتها القمحية ممتلئة القَد خفيفة الظل يا صاحبة الشعر القَصير كما ولد صغيرًا، والشفتين القاتلتين لكل ما في، سترقصين لي الليلة ولا يوجد مجال لأية أعذار فأنتِ اليوم زوجتي وعشيقتي وصديقتي الغالية.

ـ ربما أفعل، لقد جهزت مفاجأة.

ـ سأطلب الإذن بالانصراف باكرًا اليوم، سأفاجئك بحضوري ولن أتَّصل قبلها، سأباغتك لتتأكدي أنني تذكرت لأول مرة عيد زواجنا دون إشارات توضيحية مسبقة منكِ، إلوهيم راضٍ عني اليوم لا يوجد من يزاحم سيارتي ليعطلني، يا يهووه فلتكمل اليوم بسلام وكن معيني في سائر الأيام، وداعًا الآن حبيبتي.

وتعلمين أنه لم يتح لنا الوقت ليعوض أيًّا منَّا الأخر، فلقد حدث الأمر حينها.

* * *

11- ساعة التلاقي

مرّ شهر على احتجازي داخل المنزل وقرب موعد إعلان نتيجتي، كنت أتسلى بتمضية الوقت في قراءة بعض الكتب التي أهداني إياها "وليد" و"عامر" كنت أُخفيها أسفل مرتبة سريري، وحمداً للرب لم يجدها والدي.

يبدو أنه لم يعتقد أنني بهذا الخبث، أخيراً فقدوا الأمل في اعترافي بوجود علاقة خاصة مع "عامر" ودعمني في هذا "إزيه" و"جوبيتا" عندما استفسرت منهما عائلتي، لكن رغم إصراري على أننا مجرد صديقيْن، وحديث صديقيّ إلَّا أن الشك كان يملأ صدورهما.

أخيراً سمح بابا لي بالخروج دون حراسة إلى الجامعة فقط لمقابلة أصدقائي ومنها إلى المنزل ممنوعة من النزهات في الوقت الحالي، عندما وصلت إلى الجامعة بحثت عن "عامر" بعدما اتصلت به مساء اليوم الفائت كي نتقابل.

وجدته في الكافيتيريا، سردت له كل ما حدث فأخبرني أن "يهوشع" جاءه وهدده إذا استمر في علاقته معي أيًّا كان مسماها فلن يندم غيره وستكون العواقب وخيمة، لم يعره "عامر" في

طبيعة الأحوال أي اهتمام ونفي وجود علاقة كي لا يسبب لي الأذى، ولولا أن "تينا" كانت تطمئنه علي أخباري لا يعرف ماذا كان سيفعل؟ سألني عما فعلت خلال هذه الفترة، فأجبته أنني قرأت كل ما أهداني من كتب، فالعزلة أحيانًا مفيدة.

ـ يبدو أنك استمتعت بغيابك عني ولكنني لن أغضب يكفيني أنك على الطريق الصحيح لفهم كل ما يدور حولك، لقد أحضرت مجموعة جديدة لمجموعة من المستشرقين الأجانب والعرب واثق أنها سترضي فضولك النهم للمعرفة.

ـ جميل، أنت ماذا فعلت في غيابي، فالدقيقة المسلوبة من هاتف المنزل لم تمنحني الفرصة لمعرفة أيٍّ من أخبارك؟

أخبرني بمحادثته مع "وليد" وما دار فيها يوم طلب مني مشاهدة حلقة السيدة "تريز"، عشش الصمت علينا لفترة ثم قطعته بسؤاله:

ـ "عامر" أتظنها ترضى؟!

ـ من؟!

ـ والدتك، ماذا ستفعل إذا رأتني أسجد مبتهلة وشكوت لها حالي دونكَ.. أتمنحني صكوك الغفران مثل إلوهيم وتوافق على قربنا؟

ـ الأمر أنها تخاف على حياتي فكل من سبقونا تعرضوا لمشاكل كثيرة، وهي لا تريد مني المخاطرة لأجل عيون امرأة أيًّا كانت.

ـ ماذا إذا بللت الأرض باكية أمام تلك المحتكرة لحبك الرافضة لعشقي عينيكَ.. هل سيكسر ذلك قيدًا حبستني فيه ووشمًا بأنني جاسوسة تريد ترويضك لتلتهم ذويك؟

ـ وحش؟!، في النهاية تتعاملين معي على أنني وحش ستروضينه ليخرب الدنيا؟

ـ بل أحاول إغراءك بمعسول الحديث، ماذا ستفعل إذا رويت بهمسات ولهي وجنوني بكَ الثرى والسور الذي بنته ليفصلنا.. هل إزهار الرياحين والقرنفل والياسمين.. يشفعون ليَّ في عرفها؟

ـ أعتقد لا، رغم أنها حنونة وطيبة لفوق ما تتصورين.

ـ سأتصنع أنني مجنونة وأذهب إليها، ماذا برأيك سيكون الأمر إذا فرشت شعري سجادة صلاة تصلي عليها.. أيُخفِّفُ من غضبها عليَّ؟

ـ بل ستستدعي سيارة إسعاف تنقلك إلى مستشفى "رامبام".

ـ حسنًا سأذهب إليها بكامل عقلي وأتوسل لها أن تتركك معي . . أنا أرغبكَ . . وأريُدكَ . . وأحتاجكَ . . ولا أشتهي وأتمنى سواكَ من هذه الدنيا . . ماذا تتوقع ردة فعلها أتظنها ستلين؟

ـ لا . . غالبا ستطردكِ خارج المنزل وتتصل بي لتُسمعني بعض الشتائم المنتقاة .

ـ أعتقد أنك لا ترغب فيَّ وهذه هي المسألة؟

ـ أدعو الله بك ومن لي سواه مُتقبل وشافعَ، الله العالم أن حبك في قلبي منزُّهٌ عن أي عيب أو خطيئة؛ إلا رغبة فنائي التام فيكِ، لكن حبنا طفل لا يقدر على ثورة أو انشقاق، لا يستطيعِ عن روحك الابتعاد، ولا اتخاذ قرار الهجر والفراق .

لكن قدري موقفي، أنا أضعف من مواجهة كل هذا الآن، هم عائلتي كل ما لدي في الدنيا بالإضافة إليك، ثم من قال إن البعد تفريق بمسافات؟ ! ، ها أنت تسكنين آخر الدنيا بالنسبة لي كفلسطيني وأنا أوسطها . . لكنَ الروح كـ بساط الريح تجمعنا لهذا أحتمل غيابك دائمًا .

ـ كلما شككت فيكَ برَّأك الرب من فوق سبع سماوات كيف أكرهك أو أُقنع روحي بالابتعاد عن سماواتك السبع يا أرضي وسمائي؟

حسنًا ماذا إذا ذكرت والدتك بأنها في البدء أنثى، في الأصل امرأة عشقت وحاربت لتنال قرب قمرها، وفي النهاية أم لعطفها نرجو . . أتعتقد أنها ستهدأ وتمنحني قربكَ بودٍ وترحاب؟

ـ ستجيبك كل هذا أخبري به عائلتكً، فأنا أريد سلامة ومصلحة ابني وأخاف عليه منكم.

ـ ماذا أفعل أخبرني، اقترح عليَّ يا من أنت جنتي ومن رَحْمها ولد؟ ألم تبق بأحشائها تسعه أشهر وتكونت كقطعة منها ثم من روحها فُطمت، ماذا أفعل لتجمع بيننا ولا تفرقنا؟ يا يهووه ألهمني حب ورضا جنته واجعلها جنتي، أصلحني لها وله وأصلحه لها ولي، وليفيض خيرك علينا ربي ويزيد، فإننا لمَا أنزلت إلينا من خير في حاجة.

أتعلم لأجلك عشقت أختيك وأخويك، أغرمت بأبيك وأمك الساخطة عليَّ لأني ببساطة سأسرقك منها، لا تستغرب قُولي، أعلم معك أدعي البراءة وأخبرك بأنني لن أعيد تنظيم حضورك مع

غيري، وأنني سأدعهم يتمتعون بكَ ومعكَ ويشاركونني فيكَ، لكن آه من أمك . .

ضبطتني وأفسدت خططي في الاستحواذ عليكَ، علمت سري، ورثي الشرعي أنا وباقي الإناث العاشقات، ورثناه جينيًا جيلًا بعد جيل ومع لبن أمهاتنا شربناه، فتباً لغبائي كيف لم أراع الذكاء الفطري لتلك الواقفة على جنَّة ربَّ السموات والوصية على تشاركنا الفردوس الأعلى معًا.

ـ "تويف" ليست أمي المشكلة بل المجتمع المحيط بنا ككل، علينا محاربة الجميع، بعادكَ عن حياتي يحولها لشيء باهت بلا لون ولا طعم ولا رائحة، فأنت كما الماء للحياة، يمكنني محاربة الكون لأظل بقربك، لكن أَخشى ما أخشاه أن أفعل وتخذليني أنت.

ـ تعلم أنني سأَخذلك، أنا أجبن من مواجهه أي شخص بما بيننا لذا حاولت مشاكستك قليلًا، لا تغضب مني، تعلم أنني سأكتفي بالرضوخ كعادتي لكل ما حولي من ضغوط.

ـ أخبريني ماذا ستفعلين في غيابي الفترة القادمة؟

ـ سأُصبِّرَ قلبي على عذاب حبك، ثم أقنعه أن يسامحك ويزيد في حبك أكثر وأكثر، ثم قد أُزيِّن حبك لعقلي فأحبك أكثر

وأكثر، وأفرض على قلبي التعقل وعدم نثر زهر محبته للعيان علهم يتركوننا لشأننا، أم تظن أنني يجب أن أجعلهم يرون حبنا فربما يتعلمون منه حسن البيان المشوب بعاطفة العشق المنجية من ظلم هذه الحياة.

ـ نعم افعلي لنُقتل في ثانية.

ـ أعتقد علينا الوداع، ما هذا الرجل البارد؟!

ـ لا تنسي دعوتي على حفل زفافك سأرقص لأجلكِ وأغني بأحلى الكلمات، وقد أرقص الدبكة.

ـ تبًا لجبروت برودك.

ليفصلني عن كل ما فعله، عاد إلى مغازلتي قائلًا:

ـ جنّنني غيابكِ يا حمراء الشعر وشهباء البشرة، لم يكن سهلًا أن أراك دونَ المقدرة على الاقتراب منكِ في الجامعة.

ـ عليك الاعتياد عليه منذ الآن، وهيا لنتجول، عليَّ تعويضك عن كل هذا القلق.

قضيت اليوم معه، وكان أجمل من أجمل أيام حياتي، رغم براءة أحداثه فقد تجولنا بين أروقة ضريح الباب ونعمنا بجماله متطلعين بين الحين والآخر للبحر من بعيد، أخبرني أنه ادخر مبلغًا قيمًا من عمله مع أولاد عمه "حسان" في الميناء وأنني مدعوة على

غـداء فخـم في مطعـم "شـواطينا"، المطعـم مقـام وسـط أجـواء ساحرة، فهو يطل على الكرمل من أعلى.

يمكنك مشاهدة ساحل حيفا والبحر مـن أعلـى، تـصعد إليـه بسلم رخامي ليقابلـك حـوض للأسمـاك في المـدخل، ثـم يمكنـك الاختيار بين الجلوس في الـداخل حيـث يمكـن دمـج الطـاولات إذا كانت المجموعة كبيرة، كنا نفعل ذلك عنـدما نـذهب نحـن وبـاقي أفراد المجموعة إلى هناك.

ما يميز هذا المطعم أنه يمكن من أي مكان أو زاوية داخل المطعم مشاهدة البحر، لأن الحوائط والنوافـذ كلـها مـصممة مـن زجـاج شفاف لا يحجب الرؤيـة، أو الجلـوس في الـشرفة الخارجيـة حيـث توجهت مع "عامر" فالطاولات موزَّعـةٌ علـى مـسافات متـساوية تسمح بالتنعم بالمنظر الطبيعي والجمالي أثناء تناول الطعام.

ما يُثير إعجـابي في الجلـوس في الجلـسة المـصممة في الخـارج، داخل شرفة المطعم، أنني فيها أشعر كما لو كنت أعيش في الجنـة، تحيط بنا الأشجار والنخيل من جهة، وجبل الكرمل ببهائـه يتـدرج أمامنا وحيفـا بأضـوائها تمنحنـا الإبهـار والخيـال الكامـل فتجمـل الكرمل أكثر حتى تصل إلى الأسفل وترى البحر بأمواجه عند نهاية الكرمل كما لو كان يقبل قدميه عشقًا.

تناولنا حسب اختيار "عامر" القدرة وهي عبارة عن أرز مطبوخ بلحم عليه توابل عربية وبهارات وحمص مطبوخ في جرة من النحاس في الفرن، أكلة دسمة؛ لذا طلبت نسكافيه بالبندق لأعيد لعقلي نشاطه بعد خمول الطعام، بقينا نتحدث قليلًا ثم لمناكفته طلبت أن نتناول عصير الخوخ بالتوت والعنب.

كنت أعتقد أنهم سيأخذون وقتًا أطول في إعداده لكنهم أنجزوا المهمة في أقل من الربع ساعة مما ضايقني، فأخبرت "عامر" أنني لن أتركه يذهب الآن وسيبقى معي لفترة أطول، لذا عليه اصطحابي لمحل (ZF) للملابس المودرن، لم يمانع وانطلقنا سريعًا، اشتريت بنطلون جينز وتشيرتات تناسب الجو الحار لهذا الصيف.

أوصلني إلى موقف السيارات واتفقنا أن نحاول مراعاة مشاعر الآخرين وخوفهم علينا، ونقلل من مرات خروجنا سويًا، علينا أن نعتاد الأمر كي يقتنعوا هم أننا نسينا أمر الحب، وأننا فقط مجرد صديقين جمعتهما جامعة واحدة، لم أكن أعلم أنه لا فائدة من كل خططنا، وأنها آخر سويعات لنا معًا وبعدها سيكون الانفصال، سينجحون في التفريق بيننا..

الوحدة صارت أسلوب حياة أنتهجه،
لم أشعر أنها آخر مرة أراه يتنفسني ويمزجني . .
بهواء حيفا والكرمل .

* * *

12- المؤامرة

عندما وصلت المنزل وجدت بابا يتحدث عبر الموبايل بعصبيَّةٍ غالبًا هو يحدث العم "فيلبي" لأنه لا يتعصب ويذكر العربَ بسخرية وأريحية هكذا إلا معه، أما أي شخص آخر فيحاول أن يبدو دبلوماسيًّا أكثر.

أشار أن أنتظره؛ فجلست بعيدة في آخر غرفة المعيشة حتى يُنهي اتصاله، وأنا أستمع لحديثة غير مبالية بما يعنيه:

ـ إذن كانا معًا، قم بما اتفقنا عليه، لا أريد أثرًا يدل علينا.

ـ . . .

ـ أعلم أن الأمر ليس بخطيئة، لكنني لا أريد أية ضوضاء حولي الآن، أفكر في تلميعٍ صورتي الفترة المقبلة، ولا أريد ظهور هؤلاء المجعجعين بحقوق لا أعرف ماذا ليفسدوا عليَّ الأمر، ثم وإن كان الأمرُ خطيئةً فكما يقول أدوناي: "الخطيئة المستورة مغفورة".

ـ . . .

ـ هههه أتم الأمر وطمأنني، فلقد أخذ الأمر أكثر مما يستحقه.

ـ . .

ـ بالعكس أثق فيك، علينا إراحة هذا الحيوان، يلوِّحون دوْمًا بجبهم للشهادة فلنمنحها له مثل قومه، صحيح ما أخبار زوجة "عزيز" ألا زالت تثير جنونك بندواتها حول زوجها ونظرية المؤامرة والصهيونية .

ـ . .

ـ عليك التصرف بجدية معها، وداعًا .

ثم مال ناحيتي مبديًا الاهتمام؛ ابنتي الغالية أين كُنتِ؟

ـ كنت أتجول في شوارع حيفا .

ـ مع أصدقائك، "إزيه" و"جوبيتا"؟

شعرت بالتوتر وازدياد في درجة حرارة الغرفة، فأجبته في هدوء ما الأمر لم هذه الأسئلةً؟! هل افتقدتني؟ اقتربت منه وقبلت جبينه، احتضنني وأكمل :

ـ أتأكد فقط أنكِ لم تقابلي صديقك العربي هذا . .

ـ لا لم أفعل .

ـ لدينا حملة تطهير غدًا في أحد المناطق قريبة من وادي النسناس هو يقطن هناك صحيح؟

ـ لكن لا علاقة له بالسياسة ولا المقاومة .

ـ مقاومة هل نطلق عليها هذه الأيام مقاومة؟!

ـ لم أقصد أنا . .

قاطعني طالبًا مني الجلوس

ـ اجلسي أمامي هنا، اسمعيني قطتي الصغيرة، لم أتبادل معكِ أو مع أخيكِ من قبل أيّةَ أحاديث تخص معتقداتنا، لديَ ثقة مطلقة فيكما، حتى يوم أخبرتني عن حديثك مع هذا الـ "عامر" كنت أثق في قدرتكِ على اكتشاف خداعه وأكاذيبه حولنا . .

كل ما حولي يمارس الآن ضغوطه عليَّ، لذا أحتاج لتجديد الثقة في أهل بيتي، أحيانًا أقلق من أفكارك بعد مصادقتك لهؤلاء العرب، خاصة وأنكِ تميلين لفكر اليهود "القرائين"[1] تعتقدين

(١) "الربانيّون" و "القراؤون". الفرق بينهما يرتكز بشكل أساسي حول المناسبات والأحكام الدينية اليومية مثل أحكام "السبت" والتقويم، القرائيين تعتمد على التقويم القمري وهذه هي الطريقة التي كانت متبعة لتحديد الشهور في أيام الهيكل الأول والهيكل الثاني، ونضوج الشعير في أرض فلسطين تعد إشارة لقدوم الربيع، الذي من المفترض أن يبدأ به شهر نيسان، ولتحديد السنة الكبيسة، والربانيين على الحساب، و لهذا رأس السنة اليهودية تختلف عند الطائفتين، الربانيين أو "التلمودين" يؤمنون بالعهد القديم بأسفاره التسعة والثلاثين بالإضافة إلى التلمود والأسفار ٦٣ هو مقسم لقسمين: "المشناه" و"الجمارا" وفيه شروح التوراة وأبحاث عن الدين اليهودي والقانوني، كما يؤمنون أن التوراة التي نزلت على موسى قسمين: توراة مكتوبة و توراة شفوية، أما القرائية "القراؤوت"، ويُعرف أتباع هذا التيار باسم العنانيين أو القرائيين، ويرتبط ظهور القرائية كحركة دينية بشخصية الحاخام "عنان بن داود" في العراق، في القرن الثامن، لا يقبلون بتفاسير الحاخامات أو الصلاحيات المطلقة ربانية للمقرا التي يطلقون عليها " التوراة الشفهية" وهم يلتزمون فقط بأقوال المقرا المفسرة فقط "التناخ" التي يطلقون عليها "التوراة المكتوبة"، يؤمنون فقط بالله كإله، وبأنبياء التناخ كرسل وبأقوالهم فقط كأقوال الرب، يعارضون أي مذهب جاء بعد العهد القديم، في الأدب القرائي المتأخر تم نسبة أن الاجتهاد الشخصي هو من أساسيات اليهودية القرائية لعنان بن داود__

أننا ندعي أن إسرائيل أرض الميعاد لأغراض سياسية، لقد استعددت لحديثي معك اليوم وأدرك حبك للقراءة فهل راجعتَ ما أمر به إلوهيم موسى[1]:

"وأما هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك، فلا تستبقِ منها نسمة ما؛ بل تحرمها تحريمه كما أمرك الرب إلهك".

وقال لموسى أيضًا[2]:

"انتقم لبني إسرائيل من المديانيين، ثم تضم إلى قومك، فتجندوا على مديان كما أمر الرب، واقتلوا كلَّ ذَكر، واسبَوا نساء

= الذي قال وفقاً للتراث القرائي:"ابحثوا عن تعلم التوراة باستمرار ولا تعتمدوا على رأي"، أي "ابحثوا عن التوراة جيداً ولا تعتمدوا على أقوالي"، لكن كتاب عنان، "كتاب الوصايا"، لا يتضمن هذا التعبير، وهناك باحثين زعموا أنه لم يظهر سوى بعد ذلك بمئات السنين، على أساس المكتوب في سفر التثنية ٣٠، ١١-١٤، "إن هذه الوصية التي أوصيك بها اليوم ليست عسرة عليك ولا بعيدة منك. ليست هي في السماء حتى تقول من يصعد لأجلنا إلى السماء ويأخذها لنا ويُسمعنا إياها لنعمل بها. ولا هي في عبر البحر حتى تقول من يعبر لأجلنا البحر ويأخذها لنا ويُسمعنا إياها لنعمل بها. بل الكلمة قريبة منك جداً في فمك وفي قلبك لتعمل بها" صاغ الحاخام القرائي "سهل بن متصليح هاكوهين": "أعلموا إخواننا بني إسرائيل، أن كل شخص منا مرتبط بنفسه، ولا يسمع إلهنا أقوال من يبرئ موقفه ويقول: "هكذا فعل أحبارنا". بينما صاغ دانيال بن موشي الكوميسي هذا المبدأ بصورة أكثر حدة فقال: "كل من يعتمد على أحد معلمي الشنات، بدون أن يبحث بحكمته جيداً، يكون كمن يعمل عملاً غريباً" (من رسالة للمشتتين). وقد عبر عن الرغبة في الاعتماد على المقرا في كل ما يتعلق بإقامة الوصايا. لأن الاعتماد على مصادر أخرى تبعد الإنسان عن الإله.

(١) تثنية (٢٠ : ١٠)

(٢) العدد (٣١: ١)

مديان وأطفالهم، وانهبوا جميع بهائمهم وأملاكهم، وأحرقوا جميع مدنهم وجميع حصونهم بالنار" .

أتعلمين أن موسى غضب على قادة جيشه ممن أبقوا على النساء والأطفال، وقال لجنوده[1] :

"هل أبقيتم أنثى حية؟ ثم أمرهم: فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة ضاجعت رجلاً، أما النساء اللاتي لم يعرفن المضاجعة، فأبقوهن لكم"

- لمَ نطبق عليهم "ها حرما" [2] فنبيد ونقتل الجميع؟!، الكثيرون منهم لا يؤذوننا فلما نثير عدائهم بابا؟
- "مفتقد إثم الآباء في الأبناء، وفي أبناء الأبناء، في الجيل الثالث والرابع"[3]، يحاولوا قتلنا وسلبنا أرض ميعادنا ويدعون البراءة قائلين اليهود هم من قتلونا، لا نحن لم نقتلهم إلا عندما حاولوا سلبنا إرثنا ومجدنا القديم.
- لا يحاولون قتلنا بابا!!

دوما نحن البادئين في العنف معهم وتشريدهم من منازلهم لإقامة مساكن تعاونيه، خربنا أراضيهم لنقيم كيبوتسيم نعيش فيها

---

(١) عدد (١٥: ٣١)

(٢) هي النصوص التوراتية التي تبيح إبادة الأمم الأخرى الغوييم.

(٣) عدد (١٩: ٢٧)

نحن على أنقاض ذكرياتهم بابا، ثم عدنا لنشتكي أنهم من يهاجموننا، ألم نبدأ نحن العداء معهم هكذا؟

من خلال دراستي والأبحاث التي كنا نقوم بها أغلب الأشياء تعود بنا لنقطة الأصل الأرض ملك للكنعانيين، ونحن سلبناها منهم لأن الرب وعدنا إياها، أؤمن أنهم مثلنا يملكون حق من هذا الوعد فهم أحفاد "إبرام" مثلنا، قضوا جل حياتهم هنا، كنا نتشرد ونسبى عبر التاريخ ونخرج منها ثم نعود، أما هم فباقون بقاء الدم في شرايين الجسد، أخبرني لماذا نستفرد بها هل لأننا الأقوى؟

بالتأكيد لأننا الأقوى حاليًا، لكن ماذا سيحدث إذا استيقظنا يومًا ووجدناهم ملكوا قوة تدمرنا أو تخضعنا لهم، ماذا سنفعل حينها بابا؟!..

ألم يُقل الرب في سفر التكوين إن:

«وَاجْتَازَ أَبْرَامُ فِي الأَرْضِ إِلَى مَكَانِ شَكِيمَ إِلَى بَلُّوطَةِ مُورَةَ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ حِينَئِذٍ فِي الأَرْضِ. فَفِي ذلك اليوم عقد الرب ميثاقاً مع أَبْرَام قائلاً: «لِنَسْلِكَ أُعْطِي هذه الأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ. الْقِينِيِّينَ وَالْقَنَزِّيِّينَ وَالْقَدْمُونِيِّينَ وَالْحِثِّيِّينَ وَالْفَرِزِّيِّينَ وَالرَّفَائِيِّينَ وَالأَمُورِيِّينَ وَالْكَنْعَانِيِّينَ وَالْجِرْجَاشِيِّينَ وَالْيَبُوسِيِّينَ».

هذا معناه أن "أَبْرَام" جاء إلى شكيم من مكان أخر هو وعائلته؛ إذن هم غرباء عن الأرض، جاء وفيها الكنعانيون ملوك وملاك هذه الأرض، فلما نُصر على أننا ملكناها وهي ليست لنا منذ الأزل ولا تجيبني الرب وعدنا إياها وليس علينا الجدال في هذا الأمر؟.

ـ أكملي للنهاية أريد أن أسمع كل ما تخفينه داخلك من شكوك وذنوب، لا أعرف كيف سمحتِ لهؤلاء الحثالة باللعب في رأسك هكذا؟!.

ـ ليست مجرد شكوك لقد قرأت التوراة والمشنا ومنهما بدأ شكي لم تهتز معتقداتي بسبب الآخرين، لقد قرأت أن الربِ قال "لإبرام"[1]:

«أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ لِيُعْطِيَكَ هذه الأَرْضَ لِتَرِثَهَا».

ألا يثبت هذا أننا غرباء منذ البداية على هذه الأرض؟!

لماذا لا يرثوا معنا الأرض؟!

أليسوا من نسل "إبرام" أيضًا أولاد "إسماعيل"؟!

ـ هم أولاد الجارية "هاجر" لا حق لهم في شيء.

---

(١) سفر التكوين الإصحاح الخامس عشر

ـ ونحن ألسنا أبناء جاريتي زوجتي "يعكوف"؟!

ما أدرانا أننا أولاد زوجتيه الأحرار؟!

وأيضا ما يدرينا أن الرب لم يغفر لهم خطاياهم كما غفر لباقي نسل "إبرام" وترك لهم أرضهم لهذا شتَّتنا بالسبي مرتين بعد هذا الوعد؟! ألا تعتقد أننا تجبَّرنا وعصينا يهوه لذا سحب منا وعده وأعاد الأرض لأصحابها؟!

ألم يذكر في الإصحاح السابع عشر:

"أُقيمُ عَهْدي بَيْني وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلكَ مِنْ بَعْدكَ في أَجْيَالهمْ، عَهْدًا أَبَديًّا، لأَكُونَ إلهًا لَكَ وَلنَسْلكَ مِنْ بَعْدكَ. وَأُعْطَي لَكَ وَلنَسْلكَ مِنْ بَعْدكَ أَرْضَ غُرْبَتكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَديًّا. وَأَكُونُ إلهَهُمْ».

ـ ها سمعتي ما قلت أنت، منحنا الأرض بوعد من الرب خالصة لنا دون سائر الأمم للأبد، أتذكرين كلمة للأبد في وعد الرب "لتسميتوت" يا "تويفا" لا سبيل للجدال أو مخالفة الشريعة هذه شريعتنا، وهذه الأرض عليها سيأتي المخلص ليحاربهم ويقضي عليهم لنعيش في سلام دونهم.

ـ فلماذا أُعيد بناء مدينه "عاي" التي أحرقها "يهوشع" بعد العودة من سبي بابل رغم أن يهوه قال إنَّها خربت للأبد، ألا

يعني هذا أننا ترجمنا الكلمة خطأً، كيف أثق أنهم قديمًا لم يفسروا كلمات أخرى كثيرة خطأً سواء عن قصد أو جهل؟! [1].

ـ رأسكَ تحتاج لتُكْسَر، كي تنظف جيدًّا من هذا السوس الناخر فيها بغباء وتحكم، كنت أعتقد أنَّ ذكاءك الحاد وقدرتك على الحفظ والتحصيل ستكون في صالح خدمة دولتنا، لكن ماذا أقول خيَّبْت أملي فيك!!.

ـ لماذا تكسر رأسي؟!، ولماذا خيبت أملكَ؟!، إنني أناقشك من كتابنا نحن، ألم يذكر الإصحاح الحادي والعشرون:

(١) عن القرائيين: أمر الرب بوضوح بعدم إضافة أو انتقاص أي شيء من أقواله ويعتبرون ذلك كفرًا. "كل الكلام الذي أوصيكم به أحرصوا لتعملوه. لا تزد عليه ولا تنقص منه" تثنية ١٣، ١، ولا يزال الربانيون يضيفون ولا يتوقفون عن إضافة "وصايا حاخامات" ووفقاً لزعمهم ذلك جزء لا يتجزأ من التوراة، كل واحد من الربانين يعتمد في تفاسيره على تفاسير وشروح الربانين السابقين وأحياناً أيضًا على رأي شخصي. وبما أن الشخص معرض للخطأ، فيحتمل أن تفاسير الربانين تستند على أخطاء شنيعة، أما القرائيين فيقولون لو أن هناك توراة شفوية لكان الرب أمر موسى بذلك على جبل سيناء: "وقال الرب لموسى أصعد إلى الجبل وكن هناك. فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم" الخروج ٢٤، ١٢ ولم يرد أي ذكر للتوراة الشفوية، كما يشير التناخ أن التوراة فُقدت وأن شعب إسرائيل كان بدون توراة لم يقرب من خمسين عاماً. "ولإسرائيل أيام كثيرة بلا إله حق وبلا كاهن معلم وبلا شريعة" أخبار الأيام ثاني ١٥، ٣ . "فقال حلقيا الكاهن العظيم لشافان الكاتب قد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب. وسلم حلقيا السفر لشافان فقرأه" ملوك ثاني ٢٢،٨ . فكيف تتوارث التوراة الشفهية عبر الأجيال بينما المكتوبة نسيت، ومن غير المعقول أن الرب يأمر شعب إسرائيل بتنفيذ أمور متناقضة.

«فَقَطَعَا ميثَاقًا في بئْرِ سَبْعٍ، ثُمَّ قَامَ أَبِيمَالِكُ وَفِيكُولُ رَئِيسُ جَيْشِه وَرَجَعَا إِلَى أَرْضِ الْفلسْطِينِيِّينَ. وَغَرَسَ إِبْرَاهِيمُ أَثْلاً فِي بئْرِ سَبْعٍ، وَدَعَا هُنَاكَ بِاسْمِ الرَّبِّ الإِلَهِ السَّرْمَدِيِّ. وَتَغَرَّبَ إِبْرَاهِيمُ فِي أَرْضِ الْفلسْطِينِيِّينَ أَيَّامًا كَثِيرَةً».

ـ ماذا حدث في زيارتك لمركز اليهودية القرائية العالمي؟!(١)

ـ دعك من هذا أبي، مجرد زيارات تعارف وإطلاع على معلومات ليس أكثر، لم ولن أنضمَّ إليهم، ناقشني..

ألا يُثبت كل ما ذكرته أنها ليست أرضنا؟!

ألا تجعلنا نشك أننا لسنا شركاء حتى؟!

شرد "إبرام" في أرض فلسطين؛ سماها يهوه أرض فلسطين بابا.

ـ وعد الرب واضح لنا الأرض من نهر النيل إلى نهر الفرات، ما الذي لا تفهمينه وتدورين حوله هكذا؟!

(١) تتمركز الطوائف القرائية في الرملة، التي يوجد بها مبنى "مركز اليهودية القرائية العالمي"، وفي أشدود التي يوجد بها معبدين، وفي أوفاكيم، وفي بئر سبع، وفي كريات جات، وفي بات يام، وفي عراد، وفي القدس، وفي المستوطنات التعاونية "متسليح وبيت عزرا ورنان". وفي المجمل هناك ١٢ معبداً قرائياً في إسرائيل، يقعون في ١٠ مستوطنات تعاونية بالإضافة إلى كنيس واحد في عراد.

ـ لماذا مُنع "إبرام" إذن من النزول إلى مصر إذا كانت ملكنا ويجب علينا المحاربة والقتال للحصول عليها راجع الإصحاح السادس والعشرون:

«ظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ وَقَالَ: «لاَ تَنْزِلْ إِلَى مِصْرَ. اسْكُنْ فِي الأَرْضِ الَّتِي أَقُولُ لَكَ. تَغَرَّبْ فِي هذِهِ الأَرْضِ فَأَكُونَ مَعَكَ وَأُبَارِكَكَ، لأَنَّنِي لَكَ وَلنَسْلِكَ أُعْطِي جَمِيعَ هذِهِ الْبِلاَدِ، وَأَفِي بِالْقَسَمِ الَّذِي أَقْسَمْتُ لإِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ. وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، وَأُعْطِي نَسْلَكَ جَمِيعَ هذِهِ الْبِلاَدِ، وَتَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ سَمِعَ لِقَوْلِي وَحَفِظَ مَا يُحْفَظُ لِي: أَوَامِرِي وَفَرَائِضِي وَشَرَائِعِي». فَأَقَامَ إِسْحَاقُ فِي جَرَارَ».

هل نحن أكثرية أم العرب من مسلمين ومسيحيين؟!

ـ عندما يجتمع كلُّ يهود العالم هنا سنكون أكثرية وقتها سيتحقق وعد الرب، الآن تأكدت أن منع أحبارنا للنساء من قراءة التوراة كان عن حق، لا عقول لكم لتعوا أو تفهموا مشيئة الرب.

ـ حسنًا لندع التوراة جانبًا ألم تقرأ للدكتور "جون كومس" لقد أثبت ومن بعده "توماس كيرتان" أننا نحن اليهود أبناء

الأوربيـّين نحمـل دمـاءهم لا دمـاء وجينـات هـذه الأرض وعرقها.

أليس السيد "ماكسيم رودنسون" يهودي؟! مـع هـذا قـال إن عـرب فلـسطين تجـري في عـروقهم دمـاء قـدماء العـبرانيين وأبينـا "إبرام" أكثر منا نحن يهود الشتات، السيد "فـشبيرج" أيـضًا قـال إننـا نـدعي النقـاء ولكنهـا ليـست بالحقيقـة، هـل يكـذب كـل هؤلاء؟!.

ـ لن أدخل معك في جدل آخر عن اتهاماتهم أن التـوراة خيـال تحول إلى كتاب حقيقـي فُـرض علينـا، لا أريـد التـشعب في المناقشة، فحتى إذا كان الوعد جُدد لموسـى فهـو لم يدخلـها وتوفى في التيه.

ـ هـل يعـد الـرب أنبيـاءه بمـا يفـوق قـدراتهم ولا يـستطيعون تنفيذه؟ إذا كان كذلك.. فلمَ ننفذ ما لم يستطع أباؤنـا مـن الأنبياء فعله؟!

نظرت إليه بثقة وأكملت، حتى في سـفر التثنيـة كـل الحـديث ينصبُّ على أننا منحنا الوعد لأن أصحابها كانوا عصاةً وفجـارًا ألا توجد فرصة أن يكونوا تـابوا وأعـاد لهـم الـرب الأرض لـذا نحـن معذبون للآن هكذا وفي شتات دائم؟!

لقد ذكرت التوراة أن موسى خان الرب فعاقبه بالموت في التيه وسلب منَّا وعده، هذه ليست كلماتي بابا، لقد ذكرها الدكتور "الفرد جلوم"[1] وجدتها أثناء بحثي عن حقيقة ما نعيشه، وحقيقة الوعد، هل هو أيضًا كاذب متآمر علينا؟!

ثم كيف نسير خلف نبيٍّ خان الرب؟! كيف نصدقه؟!، يعقوب كذاب ومخادع، وموسى خان الرب، داود طمع فيما لدي غيره، وسليمان كفر آخر أيامه، ألا يضايقك أن أنبياءنا أغلبهم قد ضلوا حسب التوراة.

نحن شعب مشتت منذ وقعت أقدامه على الأرض، لهذا أطلقوا علينا "اليهودي التائه" فدومًا هناك من يُسلط علينا ليذيقنا الذل والمهانة ويرعب قلوبنا الجبانة في الأساس.

يعشش فينا الخوف والهلع من كل شيء وأي شيء، لا نأمن جانب أيًّا ممن نتعامل معهم، نحن وشمْنا بالعار منذ القدم، وُصِمْنا بالتجبِّر والعناد والكبر، نقتل بأريحية متذرعين ببركة يهوه والدين فأي دين هذا الذي يسمح بكل هذه الدماء؟!

ـ لقد دمرت نصوص التوراة والتلمود بشكك هذا، وأعلم أنه لا سبيل لإقناعك الآن ليس لضعف حجتي ودليلي، لكن

(١) أستاذ دراسات العهد القديم في جامعه لندن.

لأن إيمانك ضعيف، هذه الأرض لنا بقوة إيماننا لا نحتاج لإثبات أو دليل مادي، إيمانك مذبذب لهذا ابتعدت عن الرب والرب أبعدك عنه، يومًا ستكتشفين حجم المأساة التي تعشينها وستندمين وسأدعو يهوه أن يمنحك عطفه ورعايته لكي لا تستمري في غيِّك هذا كثيراً.

ـ حسنًا دعنا من التوراة والتلمود، ألم يعترف بن جوريون في أحد خطبه ويعلن: (لسنا عميانا، إننا على علم أكيد بأن فلسطين ليست بلداً خاوياً، بل إننا نعرف أن ملايين العرب يسكنون في الأراضي الواقعة بين ضفتي نهر الأردن الشرقية والغربية، كما أن هناك ملايين وملايين العرب من الذين قطنوا فلسطين منذ ألوف السنين، وأنهم يعتبرون أنفسهم بحق أبناء فلسطين)، (ليس العرب في حاجة إلى شراء أراضى فلسطين، لأنها أراضيهم، وليسوا في حاجة إلى هجرة عرب إلى فلسطين، لأنهم أصحابها الشرعيون، وهم يقيمون فيها، إن كل شيء في فلسطين هو ملك العرب ما عدا الحكومة) .

ـ لم أكن أعلم أن "عامر" هذا قد سيطر على أفكارك وغسل مخك إلى هذا الحد، ممنوعة من الخروج كليًا حتى أجد

التصرف المثالي مع جنونك هذا، اشكري الرب أن لا أحدَ سمع حديثك غيري، لكن لتعلمي جيداً ستدفعين ثمن كل ما قلته، وإذا لم تتوبي عنه سريعًا؛ تعامُلي معك حينها لن يكون كما تعامل أب وابنته، وقتها ستكونين أحد هؤلاء الحيوانات الهمج.

صرخ في اذهبي.. هيا إلى غرفتك، لا أريد رؤيتك أو سماع صوتك ثانية حتى تفيقي مما أنت فيه، سأحضر أحد الحاخامات الثقة لإعادة العقل إلى رأسك الفارغ هذا مؤقتًا.

ـ أتعلم بابا أن النبي "إرْمِيَا"؛ الذي تؤمن بكل تنبؤاته؛ تنبأ بعودتهم من شتاتهم لنتيه نحن:

"وَلَكِنِّي أَرُدُّ سَبْيَ مُوآبَ فِي الأَيَّامِ الآتِيَةِ، يَقُولُ الرَّبُّ إِلَى هُنَا خِتَامُ الْقَضَاءِ عَلَى مُوآبَ"[1]، "ثُمَّ أَعُودُ فَأَرُدُّ سَبْيَ الْعَمُّونِيِّينَ، يَقُولُ الرَّبُّ"[2]

* * *

(١) (إرْمِيَا - الإصحاح الثامن وأربعون-٤٧)

(٢) (إرْمِيَا - الإصحاح التاسع وأربعون-٦)

13- لا فائدة.. لا أمل

أسرعت ودخلت غرفتي نادمة على كل ما ناقشته مع بابا خاصة عندما ذكرت نبوءات "إرْمِيَا" فلقد بهت لسماعي أتفوه بها، هي مناقشة عقيمة وأنا أعلم ذلك فلم أصر على مجادلته دومًا والنتيجة معلومة مقدمًا؟!.

لقد جننته ببساطة ودون إدارك لحجم الكارثة التي تسببْتُ فيها، أثرت جنونه بكل غباء، ربما علىَّ الذهاب إليه غداً والتمسُّح فيه قليلًا، ليغفر لي، قد أطلب الحج مع ماما إلى "الحائط الغربي" وأقنعه أنني اقتنعت بكل ما قال وسأذهب كي أطلب الغفران من يهوه، يروقه إظهاري الندم والخضوع دائمًا، لم تسنح لي الفرصة لهذا..

بعد عودتي بساعة ونصف تلقيت اتصالًا من "إزيه" يخبرني بأن "عامر" تعرض لحادث وأنه في مستشفى رامبام، ويريدني سريعًا لأنهم يرفضون استقباله..

لا أعرف كيف ارتديت ملابسي؟ ولا كيف وصلت إلى جامعة (التخنيون)؟

نزلت من بيتي مسرعة، تركني بابا أنزل دون أن يوقفني ليكمل غرابة هذه الليلة العجيبة، أوقفت سيارة مؤجرة حتى كلية طب "رابابورت"، أدخلني موقف السيارات ومنه توجهت إلى طوارئ المستشفى، ظللت أبحث فلم أجد من يدلني فتوجهت إلى الاستقبال لأبحث بعيني عن "إزيه" حتى وجدته جالسًا في ركن منزو اقتربت منه ولا إراديًّا انهالت عليه أسئلتي:

أين "عامر"؟

كيف هو؟

كيف حدث هذا؟

من معه؟

كيف عرفت أنت؟

هل أخبرت العم عبد الجبار والخالة نعيمه؟

أريد أن أراه... لماذا لا تجيب؟!

ماذا حدث "إزيه" لمَ أنت صامت؟

ـ أجلسي أولًا

ـ لا وقت للجلوس، أريد رؤيته والاطمئنان عليه، هيا معي، ألا تسمعني؟

ـ اجلسي وسأخبركِ بكل شيء.

ـ . . . . .

ـ اجلسي . . جيدا خذي نفسًا عميقًا .

ـ هيا أخبرني لا تُثر جنوني .

ـ تعلمين أنني منذ فترة لا أخرج ، اتصلت به لنخرج سويًا ثم جاءني اتصال ونحن نتمشى بجوار جامعه (التخنيون) ، أعطيته ظهري ولم أبتعد أكثر من ثلاثة أمتار ، سمعت فجأة صوت اصطدام سيارة خلفي و "عامر" يطير من أمامي في ثوان ، سقط على الأرض غارقًا في دمائه ، للأسف لم ألمح السيارة لم أستوعب ما يحدث حاولت إسعافه ، لم أجد من ينقذني ؛ طلبت سيارة الإسعاف التي نقلته إلى هنا ، لكنهم لم يستطيعوا مساعدته ، لم يتمكنوا من فعل أي شيء لإنقاذه ، حالته كانت سيئة للغاية ، فطلبوا مني أن أهاتف أحد أقربائه لاستلامه .

ـ وأين هو الآن ، لمَ تجلس هكذا وحيدًا وتتركه؟

ـ كنت قد اتصلت بـ "وليد" أثناء نقل "عامر" في سيارة الإسعاف ، حضر بعدما أغلقت معكِ ، كان معه والداه فأخذوه معهم .

ـ أخذوه كيف؟ ولماذا؟ وإلى أين؟

ـ مات "عامر" يا "تويفا".

ـ بالتأكيد تكذب ماذا تقول؟

ـ للأسف لم نستطع إنقاذه وكنت آمل أن تستطيعي بنفوذ والدك أن تجعليهم يهتمون أكثر، ظننتهم لا يريدون استقباله لأنه فلَسطيني، لكن كان ما يقولونه صحيح حالته سيئة جداً لم يحتمل، للأسف لم يسعفه الوقت ولفظ آخر أنفاسه بعدما أنهيت الاتصال معكِ.

ـ أريد رؤيته.

ـ نحن غير مرحب بنا، أخبرني "وليد" أن أخبركِ بهذا أيضًا.

ـ لا يهم أريد وداعه وإن كان هذا آخر ما أقوم بهِ في حياتي، كما أنه من الممكن أن يكونوا قد ذهبوا به لطبيب أو مستشفى آخر وأنقذوه أريد الذهاب أرجوك "إزيه".

ـ لماذا تهتمين هكذا، قلت إنَّ والديه أوصيا "وليد" بمنعنا من الذهاب إليهم.

ـ سأذهب بمفردي.

ـ دعيني أطلب من "تينا" و"جوبيتا" مقابلتنا هناك ولتدعي الرب أن تمر الليلة بسلام.

* * *

عندما وصلنا كانت صديقتاي تبكيان وهما يتوجهان إلى سيارة "تينا" لم يلحظانا حتى، لم أهتم ولكن "إزيه" ذهب إلى صديقتي ليرى ما أمرهما ولماذا ينصرفان؟

عندما دخلت دار "عامر" عرفت ما حدث معهما؛ فقد أعيد المشهد مرة أخرى معي، خرج "وليد" مسرعًا وهو يقول بصوت هادئ كما لو كان يوشوش قواقع البحر ويحاول سحبي للخارج:

أخبرت "إزيه" ألا تحضروا لمَ لا تستوعبون أن الأمر مختلف هذه المرة إن وجودكم اليوم هنا شائك وغير مرحب به.

لم يمنح نفسه فرصة لسماعي وأنا أصرخ فيه: أريد رؤية عامر، أريد رؤيته، ما بك لماذا تخرجني؟

هل رأيت أسدًا جريح من قبل؟

دوي برق فجائي وسمعت صوتًا يرعد كما أمشير، صوت يصرخ باسمي، نظرت تجاهه رأيت الأسد الجريح ملطخ بالدماء، لم أصدق أن هذه أم "عامر" وأنها خرجت غاضبة هكذا كي تصرخ فيَّ أنا ما ذنبي، مقتولة أنا مثله يا أم؛ لكنها لم تسمع واصلت ضربات سيف صراخها:

ـ لا أريد رؤيتك هنا مرة ثانية، يا بومة، يا من جلبت النحس والشؤم إلينا بقدميها، أنتِ من قتل ابني، حذرته كثيرًا من

تبعات سيره خلفك ومما قد يفعله والدك؛ لكنه لم يصدقني، ها هو قد حدث ما كنت أخافه، أخذه مني، سرق وليدي مني.

ـ والدي لم يفعل شيئًا.

تقدمت مني مسرعة لدرجة أرعبتني وجذبتني من ذراعي بيدها الملطخة بالدماء وأدخلتني على "عامر" لم يكن هو بل كان جسدًا أخفته الدماء، كانت دماء "عامر" لم أنطق من هول المشهد، صرخت في..

ـ انظري إليه وأخبريني من قتل ولدي إذا لم يكن والدك؟ من يريد الخلاص من ولدي فالجميع هنا يحبه، أخبريني من؟!

ـ لا أصدق بابا لم يقتله، لم يفعل أنا أعلم، لا سبب ليفعل.

ـ هل القتل جديد عليه وهو قاتل الأطفال والنساء؟ لن أترك ثأر وليدي، لن نترككم تعيشون في سلام وأنتم هكذا تصرون على العيش كخنجر زرع وسط أكبادنا، جميعكم قتلة ذو دم بارد ومحتلين ومغتصبين، الله منتقم جبار سيسلط عليكم منا من يفنيكم عن بكرة أبيكم.

ظلَّت تصرخ بكلمات كثيرة ولكن لم أسمعْها جيدًا فلقد كان يتردد داخل جمجمتي صوتٌ يقول "صحيح يقتل لكنه يقتل من

يحاربوننا فقط "عامر" ليس بقاتل كما بابا ليس بقاتل"، ومادت الأرض تحت قدميّ، شعرت كما لو كنت أصارع موجًا هائلًا يريد إغراقي وأنا له مستسلمة.

* * *

أفقت لأجد نفسي راقدة في المستشفى الايطالي، لا أعرف ماذا حدث؟ دققت الجرس للممرضة، وعندما حضرت أخبرتني بعد إلحاحي عليها موجزاً سريعًا قبل حضور طبيبي المتابع؛ إنني جئتهم منذ عشرة أيام مصابة بانهيار عصبي حاد، وبأن والدي أخبرهم أنني شاهدت حادث قتل عندما حاول أحد الإرهابيين خطفي، وطلب ألا يسمحوا لأيٍّ كان غيره هو ووالدتي وأخي بزيارتي.

أضافت: إنني كنت أهذي باسم "عامر" كثيرًا، وتساءلت ببراءة أهذا اسم القاتل؟! أنقذني دخول والدي ليستقبلني بابتسامة ودودة، أجاد دوره الأبوي لأول مرة، فقد احتضنني وناداني بغاليتي، اطمأن على صحتي من الممرضة وطلب منها أن تذهب لإحضار الطبيب ليُطمئنه أكثر.

حاولت أن استفهم منه؛ لماذا كذب عليهم وأخبرهم بمحاولة خطفي؟!، ردَّ بحزم هل تفضلين أن ينظر إليكِ الجميع كفتاة مدللة مرضت لأن زميلها في الجامعة تعرض لحادث؟ كان عليَّ حمايتكِ،

ولقد أخبرت "وليد" صديقك العربي أن يقطع علاقته معك هو وباقي مجموعتك المشؤومة، لا أريد أيَّ شيء يربطك بهم ثانية، يكفينا ما حدث من جراء صداقتهم تلك إلى الآن، لا ينقصنا إلا أن تُصاب ابنتي بانهيار عصبي لأن أحد زملائها مات!!.

صَمَتُّ؛ فكيف أخبره أنه ليس مجرد زميل بل هو حياتي كلها، إنه الوحيد الذي لم يقترب مني للاستفادة من الأبواب المفتوحة في وجهي لأجل نفوذه أو تقربًا لاستغلال علاقات أخي، أو حتى للاستمتاع بجمالي، هو الوحيد الذي تعامل مع روحي وعقلي، صمتُّ أيضًا لأنني خِفت أن يعرف أن والديه ظلمًا يتهمانه هو بقتل فلذة كبدهما.

ظللت شهرًا إضافيًّا تحت المراقبة والعلاج مفصولة عن كل أساليب الحياة الحديثة، وممنوعة من كل شيء تقريبًا، وقفل بابا الحديث في موضوع "عامر" نهائيًا، لذا حاولت التماسك كي يسمح لي بالخروج، مع وعدٍ بالاستمرار في تناول أدوية أقل ما يقال عنها أنها كما المخدرات؛ تسحب عقلي وتتركني جثة هامدة، بليدة بلا حراك، وأخيراً خرجت لأتنفس من جديد، أوهمتهم برغبتي في الراحة ليتركوني بمفردي.

شكرًا يهوه أخيرًا تركوني بمفردي...

انتهزت الفرصة وطلبت "إزيه" من هاتف غرفتي لأعرف ملابسات الحادث فأخبرني:

ـ كالعادة قيدت ضد مجهول.

ـ كيف هذا؟ عليهم البحث جيداً، هل يتركون الجاني طليقًا ليتهم والدا "عامر" بابا ظلمًا؟

ـ الغريب "تويفا" أن شخصًا طلب والد "عامر" وهدده بقتل باقي أبنائه إذا استمر في التقصي عمن فعل هذا ببكره، من يملك النفوذ كي يهدد بكل ثقة هكذا؟!.

ـ غريب فعلًا، لا أعرف، وداعًا الآن عليَّ الراحة قليلًا فالأدوية تدوِّخُني، وأعلمني بأي شيء يستجد.

ودعته سريعًا لأنني عندما سمعت كلمة تهديد هذه وقتها فقط شككت أن بابا أو "يهوشع" لهما يد في الحادث كما يتهمه والدا "عامر"، ظللت أفكر طيلة اليوم.

اتصلت بـ "تينا" لأناقشها في كل ما يعتمر عقلي وقلبي من شكوك، وكيف أنني لا أصدق أن أيهَّما يمكنه أن يفعل ذلك لمجرد شكه في علاقتي بـ "عامر"، لكنها ببساطة قالت:

ـ حدث الأمر سابقًا كثيراً ويحدث وسيحدث وسيفلت الجناة لأنهم يملكون من النفوذ ما يحميهم، كما أنهم يرون من

تفعل ذلك خائنةً لأبناء ديانتها وتعمل ضد إسرائيل، ألا يحذركم الحاخامات في المعبد من الزواج من عرب؟!.

ـ يفعلون، لكنه مجرد حديث.

قاطعتني وأكملت حديثها:

ـ أتذكرين يوسف ابن خالتي الذي حضرت معي أنت وباقي المجموعة حفل عرسه منذ شهور على صديقته اليهودية؟

ـ نعم.

ـ تلقي تهديدات بالقتل كثيرة؛ ثم عرضت عليه إحدى المنظمات اليهودية المتطرفة ترك الفتاة مقابل نصف مليون دولار، حاول الهرب إلى غزة ليكون بعيداً عن أذاهم لكنه قُتل أمام منزله قبل السفر بأسبوع، ولم يستطيع أحد إثبات أي شيء على والد الفتاة الرافض لزواج ابنته من فلسطيني مسيحي، فما بالنا بالسيد "موشيه".

"تويفا" أنت ابنته الوحيدة المدللة وتحاولين الارتباط بمسلم؟! هل حاولت حتى دراسة الوضع حينها لتعلمي حجم الكارثة الذاهبة إليها بقدميك وحجم الخطر الذي تضعين "عامر" فيه؟

ـ أدرس ماذا؟! لم تتعاملين مع الوضع على أنه مخطط ومقصود؟ لا لم أدرس أي شيء!!.

ـ هل تعلمين أن ٢٥ فلسطيني تزوجوا إسرائيليات يهوديات ويعيشون في الضفة الغربية وقطاع غزة، وثمانمائة آخرون داخل الخط الأخضر يعيشون تحت ضغط الخطر؛ خاصة بعد أن أفتى الحاخام "إيال أكرم" جماعة "أولاد لاخيم" بخطف زوجاتهم اليهوديات؟

ـ تبالغين!!

ـ حسناً "تويف" أبالغ في تلك، لكن هل تعلمين أن خمسًا وعشرين ألف أسرة لا تستطيع الحصول على الجنسية لأنهم لا يستطيعون إثبات أن أحد جدودهم على الأقل كان يهوديًّا؛ لأن جذورهم فلسطينية عربية ترفض السلطات منحهم الجنسية أو حتى حق الإقامة في الدولة اليهودية، ولا حتى الجيش الإسرائيلي يمنحهم تصريحًا بالعبور للمناطق الواقعة تحت سيطرته؟

حتى عرب إسرائيل[1] بموجب قرار[2] سنه ٢٠٠٢ لا يستطيعون الزواج من فلسطيني الضفة الغربية للحد من انتقالهم للإقامة داخل حدود السيطرة الإسرائيلية، كي لا يزيد عدد الأقلية

(١) خاصة عرب ٤٨، وأضافت ناطقة باسم وزارة الداخلية الإسرائيلية "إن سكان القدس الشرقية سيفقدون إقامتهم في حال انتقلوا للعيش خارج المدينة".

(٢) قرار رقم (١٨١٣) الصادر في مايو أيار من عام ٢٠٠٢

العربية وقد يفقدون هوياتهم جراء ذلك بسبب قانون "المواطنة والدخول إلى إسرائيل".

حتى طلب "جمع الشمل"[1] يشترط فيه ألا يكون متورطًا في أية قضية ويكون السجل الأمني ناصعَ البياض، كما لا يقدمه إلا من يزيد عن خمسة وثلاثين عامًا من الرجال؛ أما النساء فمن تزيد عن خمسة وعشرين عامًا، يظل حبيس الأدراج خمس سنوات يكون فيها صاحب الطلب خارج أية منطقة تقع في حدود سيطرة إسرائيل، بعدها في الغالب ترفضه دائرة الإسكان الإسرائيلية، وقليلاً ما يوافق عليه ليأخذ تصريحًا مؤقتًا بالإقامة لأربع سنوات، ربما يمنحون صاحبه بعدها المواطنة[2]، أتعلمين أن أبناء غزة ولبنان

(١) قالت المحامية أورنا كوهين من منظمة عدالة، وهي منظمة حقوقية إسرائيلية تدافع عن "لم شمل العائلات" المبنية على الزواج المختلط الذي يكون أحد أطرافه من الفلسطينيين أو غيرهم من العرب في إسرائيل: "لقد أجبرت العديد من العائلات على العيش تحت الأرض"، كما ذكرت وكالة أنباء رويترز عن يوأب لف المتحدث باسم جمعية حقوق المواطن في إسرائيل قوله "يحق للدولة أن تمنع كافة الأجانب من المواطنة لكن عندما تصبح التفرقة بين الأجانب حسب الجنسية والقومية وهو ما تفعله بالنسبة للفلسطينيين يغدو القانون عنصريا".

(٢) وفي الوقت الذي دانت فيه محافل الأمم المتحدة، ومن بينها لجنة مكافحة التمييز العنصري، وعدد كبير من منظمات حقوق الإنسان الدولية والمحلية القانون، قالت إسرائيل إنها بحاجة إليه لأسباب أمنية. كما عبر البعض في إسرائيل عن قلقهم من أن يؤدي "لم شمل العائلات" إلى زيادة عدد أفراد الأقلية العربية في البلاد، وقال مسئول إسرائيلي في حديث لشبكة الأنباء الإنسانية (إيرين): "إذ أرادوا ذلك، فليذهبوا ويعيشوا هناك "أي في الأرض الفلسطينية المحتلة"، "أوديد فيلير"، من منظمة الحقوق المدنية في إسرائيل، "أنه حتى في حال منح تصريح الزيارة، لا يحصل هؤلاء على حقوقهم المدنية مثل الرعاية الصحية، كما أنهم لا يستطيعون الحصول على الجنسية أو الإقامة، وأضاف فيلير أنه "في حال قام الشريك الإسرائيلي

وإيران والعراق وسوريا ممنوعون حاليًا من الإقامة في إسرائيل حسب القوانين الجديدة إلا إذا كانوا يهودًا، أتعتقدين أن هذه دولة ديمقراطية كما تتشدقين دومًا؟

ـ علي التأكد أولًا مما تقولين.

ـ صارحيني هل تريدين تعريض أولادك لكل هذه الإجراءات التعسفية؟ هل تعلمين أنه في الأساس بكل بساطة كان يمكنهم ترحيل "عامر" وعائلته بسببكِ؟ هل تعلمين كل هذا؟.

ـ لا.. لم أكن أعلم، أعتقد أنكِ مشحونة بالغضب لأجل قريبك.

ـ مشحونة؟!

حسنًا أتعلمين بأنه في أفضل الفروض حتى إذا حصلتِ على التصاريح اللازمة إنَّ تصريح الزيارة أو الإقامة المؤقتة لا يمنحانك أية حقوق مدنية ولا رعاية صحية حال أصابك أي شيء سيء؟

ـ الجنسية بتطليق الطرف الآخر أو في حالة وفاته، يفقد الطرف الفلسطيني كل حقوق الإقامة في إسرائيل... ويتم ترحيله عن البلاد."

ـ منظمة "أطباء من أجل حقوق الإنسان" الإسرائيلية تقدم خدماتها للجميع يا جاحدة.

ـ جاحدة!! لنترك هذا الأمر الآن، سنتخيل أنَّ الدنيا وردية اللون وجميلة ولا نعاني من كل هذه الأشياء، هل تذهبين للحياة معه في بيته؟، هل تتحملين رؤية نظرات عائلته وهي تراكِ ابنة لمن يقتل أقربائهم، وقد يتعاملون معكِ على أنكِ جاسوسة أوقعت ابنهم في شراكها.. الخ؟ هل تَتحملين أنَ يتحول ابنهم إلى خائن للقضية الفلسطينية طبَّع مع عدوهم الإسرائيلي الذي يرتكب المجازر بحق إخوتهم؟ هل كنتِ ستتحملين هذه الحياة؟

ـ لا بالتأكيد لا، أتعلمين "تينا" تجعليننني أشعر بأنني قنبلة قابلة للانفجار من أول لمسة عليَّ كتابة لافتة أعلقها على جسدي "احذر فهذه يهودية في الأجواء ممنوع الاقتراب أو اللمس".

ـ هل فكرت بما تجيبين به أولادك إذا سألوكِ لم يحارب أولاد عمومتنا أَولاد خالاتنا ويبغضونهم هكذاَ؟ هل ثبتِ على رأيي تخبريهم به عمن فيهما مخطئ في حق الآخر، هل يمكنك الاستغناء عن جنسيتك؟

ـ لا . . لا . . لا، أنتِ لا تستوعبين أنا لم أختر حب "عامر" ولا هو اختار حبي، حدث هذا على حين غرة، لم نرتب للأمر، لمَ لا يستوعب أي شخص هذه الجزئية، مع هذا أبقينا على علاقتنا مجرد صداقة وطمرنا الحب وأغلقنا عليه بالأقفال والمتاريس، لماذا يعاملني الجميع على أن هذا الحب حربًا كنَّا ننوي القيام بها؛ لذا عليَّ تحمل ما حدث ويحدث؟ لمَ تحملونني وزر مقتل "عامر"؟ أنا إنسانة ومن حقي أن أحب وأعيش أيضًا وهو اختار حبي.

ـ لا أحملك وزر شيء لم ترتكبيه، أعلم أننا لسنا مُخيَّرين في الحب، وليس بالهين ما أنتِ فيه، وأعلم أنك لست أول من تقع في حب عربي مسلم، ولن تكوني آخرهن؛ لكنني قصدت من وراء حديثي المسهب والمستفيض أن تدركي جيدًا أنك السبب الوحيد لمقتل "عامر"، لا أستطيع مسامحتك "تويف" فأنتِ من قتل "عامر" صديقي.

ـ لست سببَ قتله كان مجردَ حادث سير، ثم أنا أيضًا صديقتكِ أتذكرين؟ أم أنك نسيت هذا؟

لم تُجيب ولم أستطع التوصل معها إلى أي شيء، فهي مقتنعة أن بابا قاتل "عامر" وسيفلت من الأمر كما حدث ويحدث،

وستظل حرقة قلب والديه عليه حتى يموتا، فضَّلْتُ إنهاء الاتصال فلا أريد ضغطًا عصبيًّا أكثر مما أعانيه، وظللت أفكر حتى المساء وحيدة، ومراجل قطار قديم تشتعل داخل رأسي لتُجنِّنَي أكثر وتُثير غضبي أكثر وأكثر.

عندما وصل بابا انتظرت حتى تناول عشاءه، ثم ذهبت بهدوء إلى حجرته لأواجهه وأنا أدعو الرب أن تكون اتهامات الجميع كاذبة، وقفت أمامه صامتة أشاهد وجهه وعينيه الحزينتين على حالي، ظل يردد سؤاله عن صحتي وأحوالي وما أريده، قائلًا:

ـ مهما كان ما تريدين سأجلبه لكِ حبيبتي.

حاولت أن أخرج الكلمات بهدوء رغم توتري الشديد ورغم البحسر العاصف داخلي، وأخيرًا سألته:

ـ لم فعلت ذلك؟!

ترك الصحيفة ثم نظر إلي بثقة قائلًا:

لم أفعل شيئًا ماذا تقصدين؟!

ـ لماذا قتلت "عامر"؟

نظر إليَّ لثوانٍ فرأي نظرةً متشككة في عيني فأجاب ببرود:

ـ بما أنك تنقبين خلفي فسأريحك، لم ولن أسمح لعربي بالاقتراب من ابنتي لهذه الدرجة، لم يسمح غيري؛ ولن

أسمح أنا لك، أنت ابنة "ميزار" بفعل هذا، لن أمنحك فرصة وشم عائلتنا بهذا العار أو تدنيس ما ظللت طيلة حياتي أبنيه، لن تهدمي ما شيدته عبر هذه السنوات.

ـ هو إنسان مثلنا كيف تحكم عليه بالموت ببساطة؟!.

ـ هل تعلمين كم عربي حقير قُبر دون أن يعلم عنه أي شخص أي شيءٍ لأسباب مثل هذه؟

ـ لا

ـ حبيبتي هم حيوانات، علينا معاقبتهم عندما يحاولون التطاول على أسيادهم.

ـ "عامر" ليس بحيوان، سأبلغ عنكَ وأفضحكَ.

ـ لن تستطيعي إثبات أي شيء، وسأنفذ تهديدي وأمحو عائلته، لن أترك أثراً يدل عليها، عليك الاختيار ما بين الصمت والحفاظ على سلامة عائلته، وما بين فناء عائلته؟ صدقيني أريد أن تختاري الثاني، هيا اختاري؟ هل تفضلين أن يعلم الجميع وتخسرين أصدقاءك العرب؛ وللعلم سآخذ أنا وسام شرف لقتلي الوغد؟

* * *

كنت حينها لا أشعر بجسدي كما لو استولت عليه شياطين الأرض وتخرج من فمي الكلمات مبتورة ناقصة، أرتعش كزلزال، بركان يغلي داخلي يوشك على الانفجار، كنت أرى صورة بابا تتراقص أمامي وهو يخرج لسانه ويضحك ضحكات شريرة أثناء حديثه بكل ثقة وغرور وفجأة زلزلت الأرض وأخرج الجحيم نيرانه لتنفجر البراكين محطمة كل ما يحيط بي. . .

لا فائدة. . لا أمل. . ماتت السماء؛ فجدبت الأرض.

* * *

علمت من ماما بعدها أنني ظللت أصرخ فيه؛ "قاتل" وأحطم محتويات الغرفة من حوله، ثم حاولت تمزيق وجهه بأظافري لكنها أنقذته مني بإحضار دوائي المهدئ وحقنتني به، وهذه ميزة أنها كانت ممرضة يوم ما في جيش الدفاع، وأعادوني إلى المستشفى.

استمرت أزمتي الصحية هذه المرة؛ بعد هذا اللقاء العاصف ثلاثة أشهر كنت خلالها كثوْرٍ هائج، أو ربما كَلْب أصابه داء السعار، لدرجة أنه تم منع الزيارة كليًا عني، حتى والداي بعد أن حاولت مرتيْن تمزيق وجه بابا المسكين بأظافري حسبما قال لي

طبيبي المعالج، ومما استوجب معه أيضًا زيادة الجرعات المهدئة وزيادة كثافة الجلسات النفسية.

ما أغضبهم رفضي الحديث أو الفضفضة عن محاولة اختطافي وإنكاري الأمر رغم محاولاتهم المستميتة لإقناعي أن هذه الجلسات لصالحي، خاصة وأنني صببت كل غضبي على بابا لأنه في نظري متهم بالتقصير في تأميني وحمايتي أمام هؤلاء الهمج.

في الشهر الرابع كنت بدأت في استعادة بَعْضٍ من عقلي بما يسمح لي بتقييم الوضع خلال هذا الشهر، كان يثيرني افتراء بابا بالأقاويل على "عامر" وكيف ادّعى أنه إرهابي ومغتصب ولولا عناية الرب لكان قد دنَّس جسدي وروحي البريئة، كان علي الخروج من المستشفى والكف عن تناول المهدئات والعقاقير المتخلفة التي يحشونني بها كي أستطيع التخطيط بهدوء.

لذا اتخذت قراري بالمقاومة وضرورة استعادة عافيتي، ظللت أخدعهم لثلاثة شهور حتى سمح الطبيب بخروجي مع الاستمرار في المتابعة مع طبيبي النفسي، ثم بقيت شهراً حبيسة المنزل كنت فيه خير مثال على الابنة الصالحة.

كانت "جوبيتا" فقط المسموح لها بزيارتي بما أنها أصبحت خطيبة أخي العزيز، زياراتها لم تتعد أصابع اليد الواحدة، وأحيانًا

قليلة يأتيني "إزيه" حاملًا باقات الورد والشيكولاته، اتفق الجميع على غلق موضوع "عامر" فلم أجد من أبثه قهري، علمت منها أن البابا استغل علاقاته وحصلنا على شهادة إعفاء من الخدمة العسكرية نحن الثلاث أنا و"جوبيتا" و"تينا"، وحاليًا مسجلة أسماؤنا في مدرسة أطفال لأداء الخدمة العامة.

كانت "جوبيتا" تتحدث بكل سعادة وفخر وهي تخبرني عن مقدار سعادتها بأن هناك ما يحقق لها كل ما تحلم به، إنها تملك المال والسلطة بفضل والدها ووالدي، لتكمل..

ـ محظوظة أنتِ يا فتاة وليتكِ تدركين قيمة هذا قبل فوات الأوان.

تصنعت الابتسام، ثم حاولت تغيير الموضوع بمعرفة ما تنوي فعله من استعدادات خاصة بزفافها هي و"يهوشع"، ظللنا نثرثر حتى دخلت عليا "كيتي" لتضحك معنا.

ـ أخيرًا سيُنهي فوضى حياته وينجب وريثًا يوثق ترابط عائلتينا.

وددت لو أخبرتها بل لتمتزج قوتا النفوذ والمال فتسيطروا أكثر كما يتمنى البابا، كنت قد اتخذت قراري، وضعت كل تركيزي

واهتمامي على استكمال دراستي العليا وكلي تصميم على معاقبة من آلمني وسرق مني فرحة قلبي . .

لذا كانت سعادتي كبيرة عندما سمحا بعودتي إلى الجامعة تصطحبني حراسة خاصة، على أن أذهب يومان في الأسبوع مع "تينا" كأمينة مكتبة مدرسة رياض الأطفال لأداء خدمتنا العامة، بعد حفل زفاف "جوبيتا" التي تمكنت من إقناع مديرة المدرسة أن ظروف زفافها لن تسمح بحضورها الفترة القادمة؛ فلم تعترض، وهل لها أن تعترض في الأساس؟!، لا أعتقد !!

* * *

١٤- وقت مستقطع

تقدم "يهوشع" بطلب رسمي للزواج من "جوبيتا"؛ إلى حاخام كنيس مدينه "حديرا" وهي منتصف "تل أفيف" و"حيفا" لأنه صديق البابا، كنت قد ساعدته على تسجيل بياناته؛ لقبه، اسمه، عمله، تاريخ ميلاده، قيمة المهر والمؤخر الذي يرغب في تسجيله والذي كان كما العادات ضعف المهر، أخبرنا بعدها أنه اتفق على يوم الثلاثاء للزفاف؛ معهم ومع سكرتير الحاخام لتوقيع وثيقة "كتوبا"(١).

ذهب يوم السبت لتلاوة أجزاء من التوراة كما تقتضي العادات ولنيل البركة، فلقد أصرت والدة "جوبيتا" أن يتم الزواج حسبما تقتضي العادات اليهودية الأصيلة، أهدته "جوبيتا" عصير بندق ليستحم به بعد عودته من الكنيس، وطاليت جديد كهدية عرس، واتفقا على صيام يوم الاثنين حتى نهار الثلاثاء وقبل الحفل الذي سيبدأ من فترة الثالثة مساءً لينالا بركات الرب ورضاه، أخبرتني "كيتي" أن "جوبيتا" اتفقت مع خبيرة تجميل خاصة لتأتيها إلى

(١) عقد الزواج: "كتوبوت" يحدّد التزامات الزوج تجاه زوجته، في الشؤون المادية وفي مجالات أخرى من حياتهما، يتم إعداد الكتوبا والتوقيع عليها قبل الزفاف بقليل، بحضور شاهدين، وتكون الكتوبا عادةً مزخرفة بزخرفات مختلفة تشتمل على رموز يهودية.

المنزل وتجهزها للعرس، لن تذهب كما كان العامة قديمًا يفعلون إلى "الميكفا"(١)، حضرت خالاتها وعماتها وجدتها من اسبانيا وأمريكا لحضور حفل الزفاف.

استيقظت الساعة العاشرة لنبدأ الاستعداد للزفاف ارتديت ثوبًا من الدانتيل الزهري الموشى بقطع من القطيفة والشيفون، اختيار الماما كالعادة؛ فأنا أكره هذا اللون في الملابس، لكن ما باليد حيلة، كل شيء باهت لا طعم، لا لون، لا رائحة؛ لكن علىَّ إكمال مسلسل حياتي بهدوء، لا سبيل لإظهار حزني أو كرهي لكل مظاهر الفرح المحيطة؛ في حين يتمزق قلبي كل ثانية دون أي صوت، لا مجال لأي تعاطف أو شفقة ممن حولي، لا سبيل لنيل بعض من الراحة لأمارس طقوس حزني لعلي أرتاح قليلًا.

لا يجب أن أترك نفسي لهذه الحالة كي لا يلاحظ أي شخص ما أعاني، يكفيني أن "كيتي" كلما رأتني شاردة تثير الزوابع وتثور براكين رعدها قائلة "من يراكِ يظن أنكِ تغارين من أخيك

(١) حمام ديني: حيث من العادات القديمة للزواج اليهودي أن الليلة التي تسبق الاحتفال بالزواج الديني يتوجب على العروس الذهاب إلى "الميكفا" وهو حمام ديني، في صحبة أمها وحماتها وجدتها وعماتها، تحمل سلة من الصفصاف وضع بها صابون معطر فاخر ومناشف وزجاجة كولونيا أو ماء ورد وليفة جديدة وقبقاب حمام مبرقش مطعم بالصدف و«طشت» صغير من النحاس أو الفضة، ثم يعهد بالعروس إلى البلانة التي تنزل بها إلى مسبح شعائري، وبعد طقوس البركة يقدم شراب منعش وقهوة أو شاي مع الجاتوه والحلوى، ثم تتوجه النسوة بالعروس عائدات إلى منزلها، حيث يستقبلهن الجيران بالزغاريد والتهاني.

وصديقتك!!" حسنًا ماما لنكمل هذه التمثيلية دون أية منغصات جديدة.

يا "إلوهيم" ما هذا الفستان؟!، ألا يكفي لونه ليكون بهذا الشكل، يصل بالكاد لركبتي، مجسم كما لو كان قطعة من جلدي، مفتوح الظهر بل لا ظهر له في الأساس، أعتقد أن الخامات نفدت من المصمم، لقد كان يحتاج إلى متريْن على أقل تقدير ليغطي كل هذه المساحة من ظهري المكشوف وساقاي، الآن علمت لمَ فاجأتني به "كيتي" صباحًا ورفضت أن أراه قبلها قائلة: "ستكونين نجمة الحفل حبيبتي دون منازع"، لا أعرف متى ستتركني أمارس حريتي في اختيار ملابسي كاملة؟!، أخرجت شالًا أبيض لأغطي كتفي وظهري المكشوف قليلًا في القاعة، مكتفيةً بالمرمريتيْن البراقتيْن في الأسفل، ارتديت حذائي الأبيض المزين بقطع من الأحجار الكريمة والماسي، بدأت في وضع القليل من الماكياج، دخلت الماما وحاولت توجيهي لبعض الألوان لكنني هذه المرة ولغيظي الشديد من هذا الفستان الذي صعد شبرين للأعلى أثناء جلوسي؛ لم أسمح لها بالتدخل في هذا الأمر وأخبرتها أنني أفضل أن أكون مثيرة بطريقتي الهادئة بلا فجاجة في الماكياج يكفيني الفستان، على غير العادة تركتني وذهبت لتطمئن

على "يهوشع" وترى هيئته فهو بطل اليوم، هل اشتمت بادرة ثورة وتمرد فقررت وأدها قبل أن تولد؟! لا أدرى أثارت فزعي من هدوئها، واستغرابي لرد فعلها المتجاهل هذا..

توقعت أن تغضب وتصرخ فأنفذ على الفور كل أوامرها، حمداً للرب على هدوئها فهو في مصلحتي هذه المرة، أنهيت زينتي وذهبت إلى غرفة المعيشة لأرى ما يحدث فوجدتها تمارس طقوس السيطرة وفرد أجنحة قوتها على البابا مستفسرة عن كل شيء وأي شيء يخص الحفل، ثم ذهبت للاتصال بأصدقائها للتأكيد على حضورهم.

انطلقنا عندما خرج إلينا "يهوشع" إلى مدينه "حديرا" وهي منتصف "تل أفيف" و"حيفا" لإقامة مراسم الحفل الديني للزفاف في الكنيس، أنا و"كيتي" والبابا في سيارته العسكرية، "يهوشع" في سيارته مع صديق أحمر الشعر يبدو كنجوم هوليود، بالتأكيد أحد أصدقاء سهراته الليلية، عندما وصلنا كانت منظمة الحفل قد أعدت كل شيء كما يجب أن يكون، الخيمة نصبت لاستقبال الضيوف، كل شيء في مكانه، اتفقت مع فريق "عومر آدم" لإحياء الحفل لينقلب في دقائق إلى ما يشبه قاعة ملهى ليلى أغلب الحضور يرقص تلك الرقصات الشرقية، بعد أن بدأ الحفل برقصة

"البولكا" وانتهى الجزء الأول من الحفل بوصول العروس حيث كانت موسيقى المازوركا تغطي الأجواء.

أوصل الرابي "يهوشع" مع الشهود إلى حيث تنتظر "جوبيتا"، شرب كأسين من الخمر ثم تبادلا كأسيهما علامة على تقبل كل منهما للآخر، ثم أمسك بطرف منديل يمسك الرابي طرفه الآخر إشارة الموافقة على العقد، أعادته إليه ثم وقع بعد توقيع "إزيه" والعم "فيلبي" كشهود.

ارتدى "يهوشع" زى العرس الأبيض كناية عن العفة والطهارة، ثم قام بتغطية وجه "جوبيتا" بطرحة من الشيفون السميك لتدل على ثقتها فيه ثقة عمياء، كانت المراسم تتم ووجه "جوبيتا" تعلوه البهجة والفرحة العارمة، كانت مثل ملكة تتوج على عرش البلاد، بعدها ذهبت مع "يهوشع" ليقفا متواجهيْن أسفل "الحوبا"[1] صممت خصيصًا لهما من الخشب المزين بقطع الفضة وبعض من قطع ماسية ذات لون أحمر وأخضر كما تفضل "جوبيتا"، مغطاة بستائر شفافة من الدانتيل الأبيض والشيفون ذي البريق الفضي، تتدلى منه شرائط ساتان أبيض وفضي، كنا نحيط بهما، ونرتل الصلوات الداعية إلى نجاح هذه الزيجة، ثم بدأ

(١) مظلة الزواج: وهي مظلة ترتكز على أربع قوائم يقف أسفلها العروسان لإتمام مراسم الزواج.

الحاخام بتلاوة خطبة الفرح، قدمت لهم الخالة "موريسا" والدة العروس كأسًا من الخمر تناولاه ثم تليت البركات السبع للزواج، بعدها تلا "يهوشع" نص قبوله للزيجة:

"أنت كُرست لي بهذا الخاتم وفقاً لشريعة موسى وإسرائيل"، وأعادت "جوبيتا" الجملة ليضع "يهوشع" خاتم الزواج في إصبعها السبابة اليمنى؛ على أن ينقلاه بعد الحفل إلى الخنصر الأيسر، ناولته "كيتي" كأسًا زجاجيًّا ليهشمه جلبًا للفأل الحسن، في حين صحنا جميعًا؛ "أي نجم حسن"، بدأنا في إلقاء الأرز والبندق على العروسين كعادة تعني تمنينا لهما بالخصوبة، تساءلت بيني وبين نفسي لو كنت تزوجت "عامر" هل كنا سنقوم بهذه الطقوس؛ أم سيفرض علىَّ عاداته العربية في الزفاف؟ لم يسبق أن حضرت زفافًا عربيًا، يا ترى ما هي مراسم الزواج لديهم؟.

أفقت من شرودي على نكزة من كوع "كيتي" في جنبي لأتحرك مع موكب العروس إلى قاعة "دنيانا كوين" بحيفا، خلف سيارة العروسين كانت سيارات الضيوف تتابعهم وسط مظاهر الفرح والغناء تصدح في سماء حيفا، القاعة مجهزة بكل ما يثير الإعجاب والاندهاش، وصممت "جوبيتا" على أن تعطر القاعة

برائحة "الفانيليا" ليغرس الهدوء والراحة بين الضيوف، في الجزء الخلفي للقاعة تفترش مائدة العرس مساحة كبيرة، عليها كل ما لذ وطاب مما تم جلبه خصيصًا من أفخم مطاعم "تل أفيف"، أغلبها مجاملة لوالدي العزيز بمناسبة زفاف نجله الأكبر.

بدأ "زوهر أرجوف" بوجهه الهادئ وملامحه الرجولية يغازل الجميع بصوته وكلمات أغانيه، ثم رحب بالعروسين بعد أغنيته الأولى وانطلق في رحلة سحرت الجميع مرة ثانية، لينشر البهجة مع صوته الرنان.

بعده واصل "زيف يحزقيل" العزف على أوتار أسماعنا بصوته وغنائه العربي، ظننت الإشاعات التي تعلن أنه عربي صحيحة بملامحه الخفيفة ووجه المليح، لكنني فوجئت بارتدائه "الكيباه" على رأسه، بعدها تم منح الجميع فاصلًا للراحة، لينتقلوا إلى طاولات الطعام، كان البابا يتنقل بسعادة بين الحضور، يمزح مع هذا ويسخر من ذاك، وكثيرًا يلهث خلف "كيتي" بعينيه ويلتهمها التهامًا بفستانها الأسود المثير، كانت متألقة وتستحق رصد عيون الجميع لها وهي تبرق كما نجمة وسط الجميع، لا أجامل إذا اعترفت أنها كانت أجمل من "جوبيتا" بمراحل، رغم أن خبير التجميل اعتنى بكل التفاصيل بدقه ليبرز مفاتنها مثل نجمة في

هوليود، كانت مثل مارلين مونرو؛ لكن في فستان مجسم ومنفوش من تحت الخاصرة، ذيله طويل يغطي الأرض خلفها، مفتوح الصدر ومزين بقطع ماسية براقة تشع كما نجوم السماء، كان لون الفستان ينافس بياض جسدها وذراعيها ولكنهما فازا بجدارة، شعرها منسدل على كتفيها مزين بوردات بيضاء صغيرة وقطع ماسية ذات لون أرجواني، أضفى على لون شعرها المصبوغ بالأصفر بريقًا خاصًا، كنت أكتفي بالوقوف ومراقبة الجميع في صمت مبتعدة عن "كيتي" كي لا أقع تحت طائلة تعليقاتها، وأسمع اعتراضاتها المستمرة المتعضة على وقوفي كتمثال حجري.

بدأ الجزء الثاني من الحفل بأغان متتالية من المتألق "أيال غولان" ثم تلته المثيرة "شوشانة ذماري" ثم "كيرين آن" وكان مسك الختام على صوت الدبكة العربية وأغان لمطربين عرب بصوت مطربنا "يوسي شوعا" ختم الحفل بأغنية "ها حبيبي" لفنان عراقي يدعى "كاظم الساهر" التي أنستني نفسي لأدور حول نفسي محتضنةً "عامر" كنت أراه وأسمعه يغني لي أنا؛ أنا فقط، احتضنني وتركته يُقبلني على جبيني، كنت أحتضنه فأشعر بالأمان، ذوبتني رائحة عرقه المختلطة بعطره الهادئ الملتصق بلياقة قميصه، انتهت الأغنية فلاحظت أنه يرتدي قميصًا وبنطلونًا!!،

لماذا لا يرتدي بدلةً؟!، كنت أريده أن يكون عريسي الليلة!!، قررت أن أسأله لكنني عندما هممت بالسؤال لم أجده أمامي؛ أفقت على توديع الحضور للمطرب "يوسي شوعا" لاكتشف أن الساعة الثالثة صباحًا وأن ما رأيته كان مجرد حلم يقظة.

انتهى الحفل وتفرَّق الجميع بعد توديع العروسين، ذهبا بسيارتهما لقضاء عشرة أيام "هاني مون" في فندق "كارلتون هوتيل" أفخم فنادق "تل أفيف" ليستمتعا بجمال الطبيعة والبحر والشاطئ الرملي الأبيض، بالإضافة لزيارة متحف "جابوانسكي" ومتحف "بيت جيدي" ومسرح "كميري"، اختاراه لقربه من مطار "سيدي دوف" فيفصل بينهما خمس دقائق فقط، ليسافرا إلى فرنسا لقضاء باقي عطلتهما، أما نحن فقد عُدْنا إلى ما كنا فيه، لنستكمل السير على خطٍ مرسوم من قبل الميلاد بيد "أدوناي" الرحيم.

* * *

15 - سأظل يهودية

كانت علاقتي بمجموعتي السابقة قد توترت خاصة وأن "إزيه" و"جوبيتا" حاولا أكثر من مرة الاستفسار عن طبيعة العلاقة بيني وبين "عامر"، لكن بعد زواج "جوبيتا" من أخي عادت العلاقات مرة ثانية؛ مع تصميمهما على أنني أظلم بابا، فبعد تفكير لا سبب يدعوه لإيذاء "عامر" بما أنني وهو كنا مجرد صديقين، وإن كان شكي صحيحًا فمن الخطأ أن أتورط في حب شخص لا يناسب مكانتنا، نفيت وجود أية علاقة بيني وبين "عامر"، كتمت كل ما أعاني داخلي؛ بل دفنته في مدفن خاص يليق بمكانة "عامر" داخل قلبي.

بعد تطوع "إزيه" في الجيش، شرح لنا ما حدث مع "عامر" وما سيحدث مع من مثله يتخيل أنه مواطن إسرائيلي كامل الحقوق كالتالي:

يمكننا التعرف على العرب.. الحديث معهم.. التنزه معهم.. الدراسة وحتى العمل معهم.. أي شكل من تبادل العلاقات، لكن علينا الاقتناع أن الأمر يتوقف عند هذا الخط،

فنحن لا نتزوج أو نحب منهم، وإذا تطاول أحدهم؛ فمسؤولينا يتولّوا عقابَه بما يروا أنه مناسب للوضع.

أتم حديثه بأن قال؛ أنني من وقعت في المحظور وتسببت في مقتل "عامر" لكنه و"جوبيتا" سامحاني لأنه حيوان ظن نفسه إنسانًا من حقه التقرب من سادته..

عندما حاولت دفع التهمة عن "عامر" والقول بأنه إنسان مثلنا هو وعائلته وجماعته ذكرني بما درسناه في "المشنا" ونقرأه في المناسبات:

"إن غير اليهود ليسوا كلابًا فحسب؛ بل حميرًا أيضًا" و"إن الله خلق غير اليهود بالصورة البشرية إكرامًا لليهود؛ لأن غير اليهود وجدوا لخدمة اليهود، ولا يجب أن يكون خادم الأمير حيوانًا له الصورة الحيوانية".

* * *

أما "تينا" فقد اتهمتني مباشرة بأنني سبب قتل "عامر" وابتعدت عن المجموعة ككل، علمت من "وليد" الوحيد الذي ساندني في أزمتي أنها كانت معجبة بـ "عامر" وكان لديها أمل كما أخبرته أن يتزوجها، فعلى الأقل هي مسيحية وليست

يهودية، لكن "وليد" أعاد مصالحتي عليها بعدها فكنت أحيانًا ألجأ إليها في ظل الحصار المفروض على من جانب والدي.

هكذا تفرق الأصدقاء وبقيت أشلاء المجموعة ولم أعد أقابلهم إلا على فترات متباعدة، خاصة وقد اختلفت اهتماماتنا وانشغل كل منا في تحقيق حلمه الخاص، لكن ظل "إزيه" يدعمني ويحاول الاقتراب أكثر رغم اعتراضي وممانعتي، بل يتقبل تعنيفي أحيانًا بصدر رحب مدعيًا إعجابه خاصة بشخصيتي المتفردة.

* * *

واظب الحاخام "مئير" الحضور إلى منزلنا لإعطائي دروسًا دينية ولاهوتية كما أوصاه بابا، وبدأت أنا في دراسة تخصني في علم اللاهوت ومقارنة الأديان بجانب دراستي للآثار؟

كنت أبحث في كل الأروقة عليَّ أجد في الكتب والوثائق ثغرة تنقذك من غضبي لكنني كلما تعمقت في دراساتي تيقنت أكثر أنها أرضهم هم وليست أرض ميعادنا، نحن قوم كُتب علينا التيه حتى النهاية.

أخيرًا وجدت ملاذي مع "وليد"، لم أكن أدري ماذا أريد منه حقًا، ولا هو فيما أعتقد كان يأمن جانبي كليًّا، كنت أحاول معه إثبات زيف ما تعلنون عنه بابا، كان يحذرني من الاقتراب كثيرًا من

"إزيه" خاصة بعد انضمامه إلى صفوف الجيش، كان يصد هجمات الحاخام وما يحاول زرعه داخل رأسي بالأدلة والبراهين، عكس الحاخام الذي كان يحاول إقناعي أن ما يقوله هو الصحيح ومجادلته أو مناقشته فيه ستجلب علىَّ غضب الرب والويل الكثير. .

لا تقلق بابا. .

سأظل يهوديةً متدينةَ؛ لكنني لا أستطيع أن أعدك ألا أخبرهم أنك وهم محترفو كذب، وتضحون بنا لأجل مصلحتكم الشخصية.

* * *

١٦- أرينيل يديديا برمان

أصرت "تينا" أن أخرج من قوقعتي، وأذهب معها للتعرف بالمكان المفترض أنني أؤدي فيه خدمتي العامة، في النهاية رضخت للتخلص من زنها المتواصل، استيقظت في السادسة لأستعد، وصلنا في نفس التوقيت إلى مدرسة "هريئالي- ريئاليغان" في أحوزة كريات سفر ٢٥، حيفا، الساعة السابعة إلا الربع صباحًا، كانت أخبرتني بالأمس أن العمل حتى الخامسة مساءً، عندما رأتني ظلت تقفز في مكانها وتصفق وهي تصرخ فرحةً بوجودي، سحبتني لتعرفني بالمديرة وبعض من زملائنا، تم الأمر سريعًا وحمدًا للرب أنهم منهمكون في عملهم فلم يطيلوا الحديث معي. .

كانت متشوقة جدًا للأمر، تعتقد أنه سيغير من وضعي النفسي مائة وثمانين درجة، ما المثير الذي سيغير من حالتي النفسية في مدرسة يصرخ فيها الأطفال طوال اليوم!!

سحبتني إلى المكتبة حيث يفترض أن نعمل، اكتشفت أنها مجرد كتب تخص التدريس والمناهج التربوية؛ وكيفية التعامل مع الأطفال حسب الفئات العمرية، هل توقعت أن أجد آثارًا تمشي

على قدميها وسط الأطفال!!، يا لعقلي!!، حبست كل مشاعر ضيقي من "تينا" داخلي كي لا أنفجر فيها.

ـ ها ما رأيك؟، مكان جميل مريح للأعصاب، والأطفال هل ترين البراءة الساكنة عيونهم الجميلة؟ ملائكة تسكن الأرض أمام ناظرينا، يا يسوع كم أعشقهم.

ـ لا "تينا" . . لا أرى أية براءة في المكان، كما لا أحب شقاوة الأطفال وضوضائهم المزعجة.

ـ قاسية القلب، كيف لا تشعرين بروح الطفولة والانطلاق وسط هؤلاء الملائكة؟

ـ تيناااااااا لا تثيريني أكثر سأكمل معك اليوم ولن أعود ثانية، لا يوجد ما يجذبني للبقاء هنا في الأَساس غيرك.

ـ يكفيني هذا على الأقل لست كارهة لوجودك معي.

ـ . . .

ـ أنسه "تينا" أحضرت إفطاراً خاصًا سينال إعجابك صنع يد والدتي.

يا "إلوهيم" هل سخرت الأطفال لإشباع شهيتها، وجهت نظري إلى مصدر الصوت كي أضبطها بالجرم المشهود، لكنني فوجئت بشاب من طائفة "حريديم" نقلت نظري بينهما، وهو

ثابت أمام باب المكتبة بلا حراك، حتى أنقذتنا "تينا" من هذه الصدمة، صدمتي من أن صديقتي تستغل غيرها لتأكل، وصدمته هو لوجود أخرى مع أيًّا كانت صفتها له.

ـ "تويفا" صديقتي التي أخبرتك عنها أنا و"جوبيتا"، زميلنا "أريئيل" مسؤول الحسابات بالمدرسة.

جلسنا ولازالت آثار الصدمة على وجهي، رحب بوجودي وبدأ في تجهيز ما أحضره من طعام على طاولة قريبة منا، تناولنا الطعام ولازلت أسكن كوني الصامت، ليفاجئني..

ـ هل أنتِ متضايقة من وجودي إلى هذا الحد؟!

ـ لا لستَ متضايقة لكنني أستغرب فقط وجودك هنا.

ـ لم أفهم؟

ـ أنت "حريديم".

ـ نعم.

ـ كيف؟!

ـ يمكنك الاستعانة بكلمات أكثر لتكونّي سؤالًا أوضح، أليس كذلك؟!، أم أن لغتك لا تسمح؟!.

غرقت "تينا" في الضحك لكنها عندما رأت وجهي المضطرب حاولت التماسك، لتخبر "أريئيل" أنني أستغرب أنه يعمل لأني أعتقد كما كانت تعتقد أن "الحريديم" لا يعملون.

ـ وأنت أيضًا "تينا" كنت تعتقدين هذا؟!

ـ نعم وأعتقد أنكَ شارد عَن القطيع صديقي.

ـ يا "إلوهيم" حسنًا هل تحضرين لنا مشروبًا، وتستعدان كي أقص عليكما بعضًا من المعلومات عنا نحن "الأنقياء" من شعب إسرائيل.

ـ خمس دقائق وأعود.

خرجت "تينا" تتأرجح كإوزة بريئة، حاولت التشاغل بمشاهدة رفوف الكتب من جديد، حتى عادت وهي تحمل حقيبة كبيرة ممتلئة بالحلويات والبسكويت وأكياس العصير وكانز البيبسي عشيقها المفضل، نظرت إلى صديقها الجديد وجدته يبتسم بسعادة، يا "يهوه" أيشاركها هواية عشق الأكل هو أيضًا، لكن لمَ لا يدل مظهره، ضاعت "تينا" وضاعت أمالي في إقناعها بإتباع حمية غذائية..

ـ "تويف" كفي عن شرودك وتعالي لنسمع حكايات "أريئيل".

ـ ابدأ؛ كُلي أذان صاغية.

ـ في البداية سأعطيكما تعريفًا بسيطًا عنَّا، نحن طائفة محافظة من اليهودية الأرثوذكسية، اسم حريديم هي جمع «حريدي» وتعني "التقي" أو "المرتعب"، من سفر أشعياء ٦٦، ٥ "اسمعوا كلام الرب أيها المرتعدون من كلامه. . . ".

مجتمعات الطائفة عندنا فئتان: الحسيدية والتي تتابع أفكار الحاخام يسرائيل باعل شيم طوف (١٧٠٠ ـ ١٧٦٠)، واللتوانية" التي تتابع أفكار الحاخام إلياهو بن شلومو زالمان (١٧٢٠ ـ ١٧٩٧م)، في العموم نعتبر من اليهود المتدينين فنحن الأصوليون في هذه الديانة، نعيش حياتنا اليومية وفق التفاصيل الدقيقة للشريعة اليهودية، ونتميز كما ترين بارتداء أزياء يهود شرق أوروبا في القرن العشرين، معطف طويل أسود وقبعة سوداء والطاليت، ذقوننا تصل إلى الصدر وتتدلى على آذاننا خصلات من الشعر المقصوع "فئوت".

ـ ونساؤكم ترتدي البرقع المشابه لنقاب المسلمين.

ـ "تينا" لا تقاطعيني.

ـ أعتذر

ـ نتحاشى التحدث بالعبرية على قدر استطاعتنا؛ ونفضل التحدث بـ "الإيدش" في الحياة اليومية لقداستها وهي لغة يهود أوروبا الـ "أشكناز"، تتميَّز عائلاتنا بزيادة عددها فنحن لا نؤمن بتحديد النسل مثلكم، ننتظر مجيء المسيح اليهودي المنتظر ليخلصنا من متاعب الحياة، ويقيم لنا مملكة الرب على الأرض التي ستتحد مع مملكة السماء.

ـ هل كل من يولد من أم أو أب "حريديم" يعتبر منكم؟!

ـ هذا موضوع خطير "تويفا" فعندنا نرى أن الحريديم الأصيل هو المتزمت، الذي ولد من أب وأم متزمتين، أما ما يسمى باليهود الحريديم الجدد الذين لم يولدوا حريديم وإنما تحولوا من كونهم علمانيين إلى حريديم، فيسمون بالعبرية "بعلي تشوفاه" (التائبون) وعدد هؤلاء يزداد اليوم خاصة في إسرائيل.

نبقى في المدارس الدينية حتى سن ٤٠ لا نشارك بسبب ذلك في سوق العمل الإسرائيلي، فنحن أقلية لذلك نرغب في الانسحاب من الحياة العامة من أجل الحفاظ على نقاء هذه الأقلية، دائما تقع بيننا وبين الدولة مناوشات مستمرة وتتصاعد بشكل دوري من الأقوال إلى الأفعال لتشمل استخدام الأسلحة والحرق

وأعمال الشغب وتدمير الممتلكات العامة والعديد من الأعمال التي من شأنها الإضرار بالنظام . .

وعلى المستوى السياسي لا نريد الحصول على الحقوق كأقلية دينية، لذا تُمثِّلنا عدة أحزاب بناء على الأصول الإثنية للحريديم، فالشرقيون "السفارديم" يمثلهم حزب شاس، أما الإشكناز مثلي تمثلنا كتلة يهودية التوراة أو يهودات هتوراه (خرجت من عباءة أغودات إسرائيل التاريخي، هديجل هتوراة)، هو حزب يرفض المشاركة بأية مناصب وزارية لكي لا يكونوا شركاء في المسؤولية السياسية عن قرارات تتناقض مع مضامين الشريعة اليهودية المتشددة، وتشارك في الحكومات الائتلافية من خلال تولي منصب نائب وزير، أو لجنة برلمانية مهمة.

ـ لماذا تختارون العزلة بعيداً عن مقولة الحفاظ على نقائكم هذا؟

ـ الاختلاط سيؤدي إلى تأثرنا بمغريات العصر، ستضيع معالم الشريعة منا كما فعلتم أنتم، نحن نحاول المحافظة على الشريعة اليهودية بلا أي دنس، كل ما نفعله له مصدر تشريعي، مثال . . لا نلبس الصوف خوفاً من اختلاطه بالكتان، والسبب في ذلك تحريمه بنص التوراة وهو يسمى "شعطنز" ولذلك لدينا مختبر يقوم بفحص الملابس، يتم

تعيين حاخام مزكىً منا يقوم بالتأكد من خلوها من مادة خليطة، ثم يتم دمغ هذه الملابس كدليل على فحصه من قبل المختبر وخلوه من اختلاط هذه الخامات ببعضها وصلاحيتها للبس، نؤمن بمقولة " على اليهودي أن يكون حذراً جداً حتى لا يسلك سلوك غير اليهود ويجب عليه أن ينفصل عنهم بملابسه وعاداته الأخر ى" ، كما نتجنب الاختلاط ويتم الفصل بين البنات والأولاد منذ الصغر منعًا للوقوع في الخطيئة.

نحن متمسكون بشدة بتعاليم الشريعة اليهودية "الهالاخاه" الأرثوذكسية ومعارضة إعادة النظر في الشرائع والتقاليد اليهودية الدينية، لذا نفضل تعليم أطفالنا في المدارس الدينية التقليدية "اليشيفات" ثم "الكوليل" من بعدها، نتعلم العلوم العلمانية عند الحاجة فقط، من أجل إنقاذ الحياة أو لكسب الرزق، الأدب والفلسفة مرفوضة.

ـ لكنك تعلمت وتعمل؟!

هكذا نطقنا سوية أنا و"تينا" ليضحك بصوت عال علينا.

ـ هل أنتما متعجلتان هكذا دومًا؟!

حركت كتفيَّ لأعلى بما يعني لا أعلم، وابتسمت طالبة منه أن يكمل . .

ـ تعلمت وعملت لأن ظروف الحياة أجبرتني على هذا، لكنني مع ذلك لازلت أُكمل دراستي مع زملائي من أبناء الطائفة، على الزوجة أن تعمل لإعالة العائلة في عرفنا، لدي أخت متزوجة في القدس وتعمل معلمة أطفال في مدرسة بضاحية «ميا شياريديم»، وثلاث أخوات يعملن لإعالة عائلاتهن في مصنع مستوطنة "موديعين عيليت"، ووالدتي تعمل سكرتيرة في مدرسة بنفس المستوطنة، لكنني فضلت أن أعمل كي أريحها قليلًا .

ـ أنتَ من مواليد حيفا؟

ـ لا من أورشاليم ولكنني اخترت أن أعمل بعيدًا عن مكان إقامة عائلتي، استأجرت شقة هنا منذ سنوات، أحب التحرر من القيود قليلًا بحيث أملك متسعًا لفعل ما أريد دون رقابة أسرية أو دينية .

ـ أعتقد أنك قمت بحركة تمرد، سمعت أنكم تتزوجون في سن صغيرة جدًا؟

ـ نعم هـو تمـرد ولكـن في إطـار محـدود، لازلـت أؤمـن بكـل معتقداتي، وبالنسبة للزواج فنعم في الغالـب نتـزوج في سـن الثامنة عشر وأقل من داخل طائفتنا، لكـن كـان هـذا بدايـة حركة تمردي فلقد فضلت التفرغ لدراسـتي وعملـي، لـدي أربعة إخوة ذكور كل واحد منهم لديه ستة أطفال.

صرخت "تينا" يا يـسوع سـتة، أعتـذر؛ لكـن صـحيح لمـاذا تتزوجون من داخل الطائفة فقط؟، ماذا لو لم تجد من تناسبك؟

ـ حفاظًا على نقاء الطائفة، ثم الزواج لا يتم لأن هـذه تناسـب وهذا يوافق شخصية هذه، العائلة هي من تختار.

عندما قلت ما هـذا القهـر؟! قـال وهـل هنـاك مـا لا يقهـر في دولتك هذه؟!، نحن في نظر باقي اليهود مجـرد متـسكعين، مـثيري شغبَ، قارني بين كيفية التعامل مـع اليهـود الاشـكنازيم واليهـود السفارديم لتدركي المأساة المعاشة يوميًّا..

ذكرني بـ "بعامر" وحديثه ولتغيير مجرى الحديث كي لا أشـرد في "عامر" وما حدث وتجنبًا أن تسرقني ذكريـاتي، طلبـت منـه أن يـشرح مـوقفهم الـسياسي ولمـاذا ينظمـون مظـاهرات دائمًـا ضـد الدولة.

ـ أولًا أماكن تمركزنا في مدينة القدس في حارة "مئة شعاريم" وغيرها، وفي مدينة "بني براك" المجاورة لشرق مدينة تل أبيب وفي بعض حارات مدينة "نيويورك"، لسنا من مؤسسي الحركة الصهيونية بل وقتها عارضها آباؤنا بشدة في مراحلها الأولى لاعتبارها حركة علمانية تهدد الحياة اليهودية التقليدية، أما اليوم فمعظمنا يؤيد دولة إسرائيل ويتعاون معها، باستثناء مجتمعات معينة مثل "حركة ناطوري كارتا" فلازالت معارضة بشدة لمؤسسات الدولة وترفض التعاون معها.

قاطعته فهذا وقت استعراض معلوماتي، هل تعلم أن أحد قادة ناطوري كارتا الحاخام "موشيه هيرش" كان وزيراً في السلطة الوطنية الفلسطينية ويعمل في الشؤون اليهودية؟.

ـ نعم أعلم

ـ كيف فعل هذا في حين أن الحاخام "غينسبرغ" كتب مرة في صحيفة "Jewish week" :

"إن كان هناك يهودي يحتاج إلى كبد، فهل يمكنك أن تأخذ كبد شخص غير يهودي بريء، يمر بالصدفة من أجل إنقاذه؟"

فكان جواب القراء:

" إن التوراة تجيز لك ذلك، فالحياة اليهودية، لا تقدر بثمن، إن هناك شيئًا أكثر قداسة وتفرّدًا بشأن الحياة اليهودية، أكثر من الحياة غير اليهودية " .

وصدرت عنكم فتاوى خاصة بفترة الانتفاضة الفلسطينية تفتي بـ:

"جواز قتل الطفل غير اليهودي، الذي يُلقي الحجارة على سيارة لليهود، هو أمر ضروري لإنقاذ حياة يهودية " .

ـ لا إجابة لدي حاليًا سأتقصى عن الأمر وأخبركِ، ثم إنَّ التوراة هي ما تحكمنا في كل تعاملاتنا .

ـ ماذا لو حدث بينكم اختلاف؟

ـ لدينا " كبار العصر " أو (كبار إسرائيل) هم المرشدون ولهم الصلاحية العليا للرد على كل ما يتعلق بالتساؤلات العامة، وإذا حدثت ضجة حول موضوع ما وثارت تساؤلات شعبية ذات تأثير على القطاع الحريدي بأكمله، فإن زعماء الطوائف المُهمين والموقرين الذين يُطلق عليهم " كبار العصر " هم الذين يُطلب منهم حسم الأمر، وقراراتهم نقبل بها بدون أي اعتراض، كما تُنشر أحياناً في بيان رسمي يُذيل بتوقيعات الحاخامات.

ـ شكراً سيد "أريئيل" لقد استفدت من حديثي معك اليوم جداً، هل تقبل دعوتي أنت و"تينا" على العشاء اليوم.

* * *

ذهبت مع "تينا" لقضاء باقي اليوم معها وللاطمئنان على والدتها، ثم خرجنا الساعة الثامنة مساءً لمقابلة "إريئيل"، كانت "تينا" اختارت مطعم "عين هوادي" فهو فخم وراق، يقدم أطعمة عربية متنوعة، فضلنا الجلوس على طاولة لا في قاعدة عربي، الحوائط مبطنة بالحجارة وكل ما في المكان من الخشب بني اللون، المقاعد والطاولات وحتى السلم الموصل للدور العلوي.

اخترنا شيش كباب وكفتة عربية وفتة من لحم الضأن وطلبت معهم محشي مشكل مع بعض من خمر "ياين"، تمنيت أن يكون بجمال ما كانت تجهزه لنا والدة "عامر" استفسر "أريئيل" من النادل عن بعض الأشياء همساً، أعتقد يسأله؛ هل الطعام ملائم للشريعه "كوشير"؟، ابتسمنا أنا و"تينا" ثم طلبنا أن يكون الحلو كنافة نابلسية وزلابية..

نستحق عقاب الرب على هذا البذخ، فكلها أكلات غارقة في الدهون، طلبت كأساً آخر من "ياين" ليساعد في هضم هذه

المتفجرات، أنهينا حملتنا الجهنمية هذه بمذاق "شاي بالنعناع" لتكتمل ليلتي العربية كما أسمتها "تينا".

تجنبنا أثناء العشاء الحديث عن أي شيء مع "إريئيل" فيما يخص طائفته، واكتفينا بتبادل أحاديث عامة وعابرة، لكنه حاول إقناعي أن أحضر إلى المدرسة وتغيير نمط حياتي؛ بعد أن أخبرته "تينا" أنني مررت بفترة نفسية عصيبة؛ وأنها تحاول إخراجي منها، لكنني أقاومها، أجبته بلطف إنني سأحاول، كانت أمسية ممتعة، خرجنا نتجول قليًا، ثم أخبرتهما أنني متعبة وودعتهما، تركتهما يتمشيان في حين أوقفت تاكسي لأعود إلى منزلي وأحضان سريري الوثير.

* * *

17- إياك قد اختار الربُّ إلهك

يا إلوهيم الرحيم كيف مرَّ كل هذا الوقت، وعبرت كل هذه السنوات وحدي، بسببك بابا لم أعد أؤمن بأن فلسطين هي أرض الميعاد، مملكة الرب على الأرض، كنت كما تصفني ماما دودة خلقت للقراءة، كنت أبحث في كل مكان، أبحث وأتقصى من "وليد" و"أريئيل" و" جيزيس" وأساتذتي في الجامعة وكل من أستطعت الوصول إليه داخل وخارج إسرائيل. .

في النهاية كنت قد اتخذت قراري، بدأت خلال السنوات الخمس الأخيرة أخبر "وليد" بأخبارك أنتَ وأصدقائك، كنت ألتقط كنحلة جائعة كل كلمة تتفوهون بها بلا مبالاة في الحفلات والتجمعات، وما أكثرها بحكم أن تسعين بالمائة من أصحابك ومعارفك عسكريون، ثم أخبر "وليد"، كنت أشك أن له علاقة بمن تطاردهم فكان عقابي لك أن أمنحهم فرصة إقلاق مضجعك وإثارة جنونك، عن طريقكَ أنتَ توصلت للكثير، فقد كانت صداقتك لماما وإخبارك إياها بكل تفصيلة في حياتك مهما كانت عادية أو سرية وتتعلق بالعمل في لحظات الصفا الكثيرة، كنت وسيلة إمداد سريعة وسهلة.

غيرتها وهيامك بها؛ حدّ رمي أخبار قادتك تحت قدميّ أنا ببساطة، لا تعتبره تجسس فلقد تعلمت منكم هذه التصرفات، كنت فقط أريد منحهم نقطة قوة؛ تجعلهم يستطيعوا الوقوف رأسًا برأس أمامكم.

حتى سمعت الخبر الأكبر، وأنت تتحدث مع "يهوشع" وماما وتتفاخر بأنك ستقضي على مجموعة فلسطينيه جديدة في عملية اليوم التالي، ثم شرحت بعدها التفاصيل، هذه ميزة أن ماما أصرت على شقة صغيرة تناسب عددنا، فشقتنا عبارة عن غرفة معيشة واسعة؛ لا يوجد فيها غير فوتيهات أمريكية التصميم مع مكتبة تحتوي التلفاز وبعض الكتب القليلة، وحجرة مكتب بابا الجانبية والتي يمكنني عندما أجلس بقرب الممر الخاص بالمطبخ أن أسمع كل ما يحدث فيها..

ربما كان عليك بابا تغير نوعية خشب الباب ليمنع الصوت، أما عند النوم فأفادني أن غرفتي تتوسط الثلاث غرف، مما يسهل بسبب الشرفة الخارجية سماعي لأحاديثك وحكاياتك لماما كل ليلة، وأيضا محادثات "يهوشع" مع فتياته عندما كان يبيت معنا.

سمعت كل ما أخبرتهما به وبدوري أخبرت به "وليد".

مسكين بابا..

ليلتها تساءلت كيف سيكون رد فعلك بعد فشل العملية؟
ماذا سيكون رد فعلك إذا علمت من أبلغ عنك؟!
للأسف لن أحظى برؤية هذا المشهد نهائيًا.

لازال قلبي يدق كالطبلة؛ منذ دخلت علي ماما باكية لتوقظني وتطلب أن أرتدي ملابسًا للحداد سريعًا، أتعلم كنت أظنها إحدى صديقاتها الأثيرات، ذهبت إليها عندما انتهيت، حقنتني بالمهدئ ثم صدمتني..

هذه المرة تفوقت على نفسها، أسمعتني خبر شؤم لا يحتمل إنسان الاستيقاظ عليه صباحًا..

"بالأمس ذهب والدك في حملة تطهير مع بعض مجنديه لاقتحام بعض المناطق ولكن للأسف كَمِن لهم الإرهابيون أثناء الاقتحام وقتلوا الجميع".

لقد ظللت أصرخ وأصرخ حتى بدأ المهدئ يأتي بمفعوله، جلست صامتة كما الأموات، اعتقدت أنني صدمت لموتك لا تعلم أنني أحمل ذنب قتلك بابا..

رغم أنك تستحق لظلمك البين، صدقني لم أرغب في قتلك، كنت ألعب بأعواد الكبريت، وعْدٌ مني لن أتعامل مع "وليد" ثانية، كان الأمر كما لعبة قمار خسرتك أنت فيها، لقد كنت أظن

أن لديه علاقات بأفراد الأمن الفلسطينيين؛ ومعلوماتي ستمدهم بالقوة، لم أعتقد أن علاقته بالإرهابيين شخصيًا، هل هم إرهابيون؟ هل قتلت والدي حقًا أم أنه من قتل نفسه بأفعاله؟

سامح ابنتك يا " ميزار موشيه "

سامحني فأنا من أهدتك الموت لكنَّ الرب شاهد عليَّ لم أوش بك لأنني أكرهك، كنت فقط أريد عقابك لأنك أفسدت حياتي بدكتاتورية وعنصرية سقيمة، تدعي أمام الجميع أنك ديمقراطي ومعي أنا ترسم الحدود وتضع السدود والموانع.

كان كل ما فيَّ يغلي، وأردت عقابك أكثر عندما تأكدت من كذبك أنتَ ورفاقك وخطأ ما ربيتمونا عليه من موروثات وأساطير، كان علي إجبارك على التكفير عن ذنوبك الكثيرة في حق من سلبتهم الحياة وحقوقهم الشرعية وهدمت منازلهم، من تجبرت عليهم وسلبتهم وطنهم كي تبني أنتَ ومن مثلك من مزيفين للحقائق مجدكم فوق رفاتهم، أردت فقط أن تُفصل من عملك.

أردت فقط منحهم الفرصة للعيش معنا على نفس الأرض بنفس الحقوق والواجبات، علنا نعيش في سلام وأمان جميعًا، لم أكن أستوعب أن الأمر ليس بلعبة؛ وأنها حرب فعليَّةً، الجميع لا

يأمن للجميع، والكل يرغب بالقتل كحل سريع، لم أكن أعلم أن كلًّا منَّا يريد إزالة الآخر وإفناءه.

لقد ظننت الحب يملك القوة التي تمكنه من إنقاذنا نحن الاثنان، لكن يبدو أنني كنت واهمة، انتظر..

أنا فعلًا واهمة..

كيف أريد إنقاذ العالم؛ وأنا من داخلي لازلت أؤمن أننا أعلى منهم درجة وأعظم شأنًا؛ لذا سأتنازل وأضحى وأشاركهم مجد أجدادي وأرضهم؟

ربما علي التكفير عن موتك فقط وإكمال طريقي فأنت في الأساس من جلب على نفسه هذا المصير بجبروته وعنفه؟!.

عندما تقابل "عامر"، طمأنه على عائلته، لقد كنت أنا من ساعد في هربهم بعيدًا عنك، كنت أرعاهم مع "وليد" بطرق غير مباشرة لأحميهم من بطشك.

أخبره أيضًا، أنني أنتظر لقاءه على أحر من الجمر؛ لأكون حوريته في الجنة كما كان يريد، أتمنى لو كان الأمر عاجلًا، فلن أحتمل ذنب قتلي إياك كثيرًا، أحبك كثيرًا، لهذا حاولت تطهير روحك قبل أن تذهب إلى "شاؤل".

"وَيَسْتَيْقِظُ كَثِيرُونَ مِنَ الأَمْوَاتِ الْمَدْفُونِينَ فِي تُرَابِ الأَرْضِ، بَعْضُهُمْ لِيُثَابُوا بِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ وَبَعْضُهُمْ لِيُسَامُوا ذُلَّ الْعَارِ وَالازْدِرَاءِ إِلَى الأَبَدِ".

* * *

خرجت مع والدتي للانتظار خارج الغرفة، ثم ذهبنا مع "يهوشع" في سيارات خاصة تتبع لواء "غولاني"[1] الجميل فيهم دعمهم المستمر لعائلات قادتهم ومجنديهم، لا يتركوننا بمفردنا في مثل هذه المصائب، يثبتون كل يوم أن من ينضم للجيش وخاصة للواء "غيفاتي"[2] ولواء "الناحال"[3] ولواء "كفير"[4] مميزون

(١) لواء غولاني أو جولاني: ذو القلنسوة البني لارتباطهم بالأرض، تدريبه يتم في قرية "الجحيم"، ومقره الرسمي شمال فلسطين، البنية الأساسية لهذا اللواء هم طلاب المدارس الدينية المتشددة كما يوجد عرب ودروز فيه بنسبة خمسة وثلاثون بالمائة يتكون هذا اللواء من عدد ثلاث كتائب من دبابات ميركافا-٤ وكتيبة مهندسين وكتيبتين من المدفعية وكتيبة مظليين وسرية حرب إلكترونية وسرية خدمات طبية.

(٢) لواء غيفاتي: ذو القلنسوة البنفسجي اختارته ابنه قائد اللواء، كان يعمل في قطاع غزة قبل الانسحاب منها، مقسم إلى ثلاث كتائب : شاكيد، تسابر وروتيم، بالإضافة إلى وحدات الاستطلاع، الهندسة، والوحدات الأخرى المرتبطة بها.

(٣) لواء الناحال: لواء نوعار حالوتزي لوحيم، شباب الطليعة المقاتلة، ذو القلنسوة الخضراء لما له من علاقة باستيطان الأرض والزراعة في إسرائيل، يعمل في منطقتي الخليل وبيت لحم جنوب الضفة الغربية، مقره في تل عراد.

(٤) لواء كفير: لواء ٩٠٠، ذو القلنسوة المموهة لبيث الروح القتالية

لأن عليهم العبء الأكبر في مهاجمة من ينغصون العيش على مواطني إسرائيل ويهاجمون المستوطنات من إرهابيين وقتلة.

عندما ينتهي كل هذا الضغط، لن أهتم سوى بأبحاثي وكتبي، عليَّ التكفير عما تسببت فيه من فوضى، أدعو الربَّ أن يسامحني وألا يعلم أخي أو ماما بأن لي دخل بهذه الكارثة.

يكفيني اتهاماتها بأنني أزرع الفتنة في عقول طلابي؛ بأبحاثي عن أصول ملاك الأرض الحقيقيين، وعن أنهم أبناء عمومة يستحقون مثلنا الأرَض.

ماذا أفعل؟!، كل الدلائل تشير إلى أن الكنعانيين كذلك؟!.

* * *

18- المواجهة

ـ "تويفا" . . "تويفا" . . "تويف" ، ما كل هذا الشرود؟! ، تعالَ معي في هدوء .

ـ "إزيه" لماذا ترتدي زيك العسكري؟ ، هل ستشارك في الجنازة العسكرية مع مجندي بابا؟ هل علمت قاتله؟

ـ نعم . . نحاول تتبع الخطوط لنصل إليه وسنفعل قريبًا ، أين "كيتي" ؟ .

ـ ذهبت مع الممرضة لتتناول دواءً لضغطها العالي ، ثم ستحضر شمعًا ليظل مدفن بابا مضيئًا ، بعدها سنتوجه إلى أورشاليم لدفنه مع باقي جثامين مجنديه بعد قليل .

ـ لم أركَ منذ حفل زفاف "تينا" على صديقكما الحريديم ، لا أعرفَ كيف وافق والدها على تزويجها هذا الشخص بالإضافة إلى سماحه له بالإقامة في المزرعة والعمل معه؟

ـ كنت أحتاج إلى هدنة مع نفسي ، وبخصوص "إريئيل" فلقد حارب لسنوات عائلته من أجل الزواج منها ، وعمله مع والد "تينا" السنوات الخمس الأخيرة كان ليتأكد والدها من أخلاقه وشخصيته ، وعدم اختياره لها من أجل ثروتها ،

"تينا" تحبه ومتعلقة به بشدة ولا تعارض أيًّا من أفكاره، هي متوائمة مع كل ما يطلبه منها، فخورة هي دائمًا بأنه خالف عاداته وابتعد عن أهله وعمل وعاش في المزرعة ليظل معها، الحب يصنع الأعاجيب سيد "إزيه" كما يخبرنا والد "تينا"؛ لذا كخدمة كبيرة منه ساعدهما على الزواج.

ـ هل يمكنني دعوتك على مشروب دافئ ومحادثتك قليلًا؟

ـ لن أستطيع الذهابَ لأي مكان معك الآن، ليسَ هذا الوقت المناسب لتجديد عرضك؟

ـ أنا مثل صديقك الحريديم أحارب المستحيل لتكوني لي، أتعلمين "تويف" أن هاتف "وليد" كان تحت المراقبة ورُصدت مكالمتك، للأسف استطاع الهرب ولم يقبضوا عليه، لكنني أقنعتَ رؤسائي أنكِ لا تدركين مع من تفشين أسرار والدك، لذا كلفوني بالتحدث معك لمعرفة مدى تورطك أو عَلاقتك بالأمر، هل علمتِ الآنَ أنني سأفعل المستحيلَ لحمايتك؟

ـ كنت فقط أثرثر معه، دائما أقص عليه كل شيء أ. . .

ـ لا أعتقد أنك تريدين إزعاج "يهوشع" و"كيتي" بالأمر، فهل تأتين معي لمكتبي لفترة قصيرة؟! آخر ما كنت أتخيله أن يتم اتهامك بالجاسوسية.

ـ لم أكن أعلم أنه من هؤلاء المخربين، فقط أردت أخذ حقي والانتقام لـ "عامر".

ـ "عامر"؟؟!! ألازلت تحلمين بهذا الشخص؟

أتعلمين لم أندم أبدًا على مساعدة "ميزار" في معاقبته، أنصحك بألا تتفوهي بالمزيد، وإلا ستورطين نفسك أكثر؛ ولا تذكري "عامر" أو أية أشياء قديمة كي لا تثبت التهمة أكثر عليك، أم أنك وشيت بوالدك عامدة "تويف"؟!!..

ـ لا لم أفعل عمدًا، هل تقول ساعدت "ميزار"؟!، أنتَ ساعدت في قتل "عامر"؟

ـ كان يستحق العقاب، أم ترين شيئًا آخر؟

ألجمتني الصدمة ولم أستطع إجابته، دارت رأسي هل كنت مخدوعة فيه كل هذه السنوات، كيف فعل هذا؟، كان صديقه؟!، أخرجني من صمتي بسؤاله مرة ثانية "تويف" هل تعملين معهم؟ أترين أنهم لا يستحقون العقاب؟!

ـ لا أنتَ على حق يستحقون العقاب، ووليد يستحقه أيضًا، استغل صداقتنا ليتقرب مني، الرب هو العالم ماذا كان ينوي أن يفعل ربما أراد اختطافي للنيل من بابا؟ .

أجبته في حين استولى علي الذهول، كانت رأسي تدور في دوائر لا نهائية، يغتال انتباهي أصوات تصرخ وأخرى تصدر فحيحًا من حولي، حاولت تجميع شتات أفكاري، سمعت صوتًا يهتف داخلي "عليكِ الصمود، أفيقي يا فتاة فليس هذا وقت السقوط" ، أكملت حديثي معه بصوت خافت قليلًا . .

ـ لقد كنت دومًا إلى جواري واحتملت كل سخافاتي، إذا أخبرتك أني قبلت عرض الزواج، هل تتركني أحضر مراسم الدفن؟ هل تساندني في هذا الأمر؟ !

ليس لدي من قد ألجأ إليه غيركَ؟ ولا أعلم كيف أتصرف؟ ، تعلم أنني لا يمكن أن أفعل ما يضر بابا .

ـ هل وافقت لأخرجك من هذه الورطة؟

ـ لا، تعلم أنني لا أتخذَ قرارًا عشوائيًّا أو طائشًا، كنت قد قررت قبول عرضكَ ولكن لم تأت الفرصة لإبلاغك .

ـ إذن ولأول مرة تفكرين برأسك الجميل هذا . .

قرارك أعقل شيء فعلته منذ عرفتك، "وليد" صديق قديم ولا يمكن لدكتورة مشغولة طيلة اليوم في أبحاثها مثلك أن تتخيل أن يكون إرهابيًّا إذا سألتني رأيي.

ـ هل هذا ما يجب علىَّ قوله في التحقيق؟

. . . . .

ـ حسنًا سأقول هذا.

ـ وتصري عليه، هيَّا سنحضر الجنازة ثم أخبر والدتك أنك ستذهبين معي لإنهاء بعض الأمور المتعلقة بوالدك، لا نريد إرهاق "يهوشع" بها في حين يمكنك أنتِ توليها.

ـ أنت منقذي.

* * *

19- صهيون الشهية

"إزيه" شخص رغم سخريته ومزاحه معي ومع أصدقائنا؛ إلا أنه شخص قاس ذو قلب متحجر، خاصة بعد مقتل أخيه "بوعز"، يرى الدنيا يهوداً إسرائيليين إشكناز فقط، وما عداهم "غوييم" أرسلوا للأرض لخدمتنا فقط، وعلى هؤلاء الأغيار الحياة عبيداً لنا دون تذمر من خدمتنا، ويستشهد بما يقوله يهوه "وخلق الله بقية البشر؛ لتعمر الأرض؛ حتى لا تكثر الوحوش في الأرض، فتهاجم بني إسرائيل"[1]؛ "إياك قد اختار الربُّ إلهك؛ لتكون له شعبًا أخصَّ من جميع الشعوب التي على وجه الأرض"[2].

هو يهودي مثالي في نظر الجميع، لكنني أبداً لم أتوقع أن يكون له يد في مقتل "عامر"، صحيح هو لا يترك مناسبة دينية إلا وشارك فيها، لكن أن يقتل أصدقاءه؟ لا أستوعب الأمر إلى الآن.

بعد تخرجه الذي واكب مقتل أخيه "بوعز" ساعده والدي على الانضمام إلى لواء "الناحال" رغم توقه الشديد للانضمام

---

(١) خروج (٢٣ : ٢٨)

(٢) تثنية (٦ : ٧)

للواء "غولاني" استطاع الانتقال إلى جهاز "الشاباك"[1] في القسم العربي، المختص بمكافحة المنظمات والحركات العربية داخل إسرائيل، انتقل منذ فترة قصيرة إلى قسم التحقيقات، وعده والدي منذ أسبوع أن يتوسط في نقله إلى جهاز "آجاف هموديعين"[2] ولكن ها هو قد قُتل ولن يستطيع الوفاء بوعده.

يعشق السهرات الخاصة بأخي، ففيها كل مُتع الحياة كما يصف أحيانًا، تحبه ماما ووالدي الراحل، ويرون أنه زوج مثالي لأي فتاة عاقلة طموحة.

هو مثال متجسد للزوج اليهودي الإشكناز المؤتمن على الابنة، والداه في الأساس من روسيا، يملكان شركة تصدير خضراوات وموالح كبيرة، لديه أختان فقط متزوجتان من يهوديين أمريكيين

(١) شين بيت

(٢) شعبة الاستخبارات العسكرية: أنشأت في مارس ١٩٥٠، تابعة لهيئة أركان الجيش الإسرائيلي، فتلتزم بما يقرره مجلس أمن الدولة الأعلى، هي أكبر الأجهزة الاستخباريه وأكثرها كلفة لموازنة الدولة، وحسب القانون الإسرائيلي فإن جهاز" أمان" مسئول بشكل أساسي عن تزويد الحكومة بالتقييمات الإستراتيجية التي على أساسها تتم صياغة السياسات العامة للدولة، بالذات على صعيد الصراع مع الأطراف العربية، وتعتمد أمان على التقنيات المتقدمة إلى جانب المصادر البشرية في الحصول على معلوماتها الاستخبارية التي توظفها في صياغة تقييماتها الإستراتيجية، وتقدم أمان تقييمًا استخباريًّا بشؤون عسكرية وسياسية، تستفيد منه حكومة الاحتلال والأجهزة العاملة تحت إمرتها. كما يتم تزويد الملحقين العسكريين في السفارات بالمعلومات التي تتعلق بعملهم والبلد المتواجدين فيه.

ويعيشان هناك حتى الآن، لكنَّ يومًا سيعودان إلى أرض الميعاد كما يدعي والدا "إزيه" فالكل يجب عليه أن يعود.

يمتلك جسداً رياضيًا طويلًا، أبيض البشرة، أحمر الشعر بطريقة تثير حنقي مثل "جوبيتا" لكنه أجمل منها، خاصة وأنها بيضاء قصيرة وممتلئة الجسد، تبدو مثل تفاحة شهية ونحمد الرب أن أولاد أخي يشبهونها هي وليسوا مثل "يهوشع" الأبيض البشرة ولكن وجهه ممتلئ بالنمش، ورغم قصره إلا أنه كسول ورأسه خالية من الشعر بطريقة مثيرة للضحك، فلا يوجد فيها غير عشرين شعرةٍ على أكثر تقدير، يشبه بابا في كل شيء إلا أن بابا غزير الشعر.

* * *

انتهت المراسم ووضع الجسد داخل قبره وانهالت المعاول بالتراب لتخفيه عنا ونودعه الوداع الأخير، ذهب كل من تناوب على ردم الحفرة لغسل أيديهم وتطهيرها، الآن توحد مع يهوه في ملكوته، بقيت مع ماما ندعوه ليشفع لنا لدى يهوه كي يغفر لنا خطايانا، أما "يهوشع" فقد أشعل الشمعة عند شباك القبر كي تؤنس عتمة قبره، ثم رش النقود المعدنية من حول القبر كي تذهب

الأرواح الشريرة بعيداً عنه، وذهب "إزيه" لإجراء مكالمة ضرورية كما أخبرني.

عندما لمحت شبحًا من بعيد يبدو مألوفًا يبتعد عن أحد المقاعد البعيدة قليلًا عن المدفن؛ ذهبت بهدوء إلى هناك وجلست ملتقطة موبايل صغير موضوع على حافة المقعد، جاءني اتصاله:

ـ "وليد" قتلت بابا.

ـ لم يكن الأمر مقصوداً أو مدبراً له، لكنهم كانوا مدججين بالسلاح، كانت عملية قتل وتصفية لا إلقاء قبض؛ فلم نستطع غير التعامل بالمثل، أعتذر صديقتي أنا حزين لحزنك إنسانيًّا لكن لا يمكنني ادعاء الحزن لوفاة من يذبح فينا دون أدنى شعور بالذنب.

ـ أنا أيضًا حزينة عليه.

صمتُّ قليلًا ثم أضفت؛ حزينة عليه لكنني لست حزينة على كولونيل "ميزار" فهو يستحق ما حدث له، لم أكن أعلم أنك عضو فاعل، كنت أظنك مثلي ناقل أخبار، ماذا ستفعل الآن أخبرني "إزيه" أن هاتفك مُراقب ويبحثون عنك؟

ـ لا تقلقي عليَّ ماذا عنكِ؟

ـ سيحققون معي، لكن "إزيه" سيكون معي أثناء التحقيق، سأدعَّي أنني لم أكن أعلم عنك هذه الأشياء، وأنك مجرد صديق قديم خُدعت فيه، كنت أظنه يريد السلام وأمن إسرائيل كما كان يدعي، ومعلومة إضافية وافقت على عرض "إزيه" بالزواج.

ـ "إزيه" هل تريدين الانتحار كيف تفعلين هذا؟

ـ ساعد في قتل "عامر" خذ حذرك ودعني أطمأنُّ عليك دومًا، لا أعرف كيف؟!، ولكن أفعل.

ـ احتفظي بالهاتف وأخفيه عن الأنظار، لا تغيري النغمة، ضبطته على الوضع الصامت مع خاصية الاهتزاز لدواعي الأمان، سأجد طريقة لرؤيتك بين الحين والآخر، وفكري في أمر الزواج لا ترمي بنفسك إلى التهلكة "تويفا" يهمني أمرك كثيرًا؛ قد أكون أحبك وأنا لا أعرف!.

ـ لن أعيد مأساتي السابقة لنحافظ على ما نحن عليه، سأوليك بالأخبار كما اعتدت وها هو قد فُتحَ لنا باب جديد ليس سخيًّا كما السابق لكنه سيفيد.

أردفت، هل صحيح أنكم دراويش وموالين الدين المحمدي ترونا مجرد خنازير وملوك للدهاء؟! إننا نستحق القتل والتشريد؟!

ابتسم مكتفيًا بالنظر بعمق إلى وجهي فلم أفهم.

ـ ماذا؟!

ـ اقرئي أنت وتتبعي الأثر؛ فلست ممن يقتنع ببساطة، لأنَّ إنسانًا قريبًا من قلبك أو عقلك أجاب سؤالك، وتذكري أننا معًا منذ عمر كامل، وداعًا صديقتي.

ثم تركني وذهب ملوحًا بيده علامة النصر..

همست بهدوء حذر بعد زفير تمنيت أن يمنحني بعضًا من الراحة، "بل إلى اللقاء صديقي"، تلفت حولي لأرى إن كان هناك من رآني في الجوار، رأيت "إزيه" متجهًا نحوي..

يا إلوهيم..

هل رأي "وليد"؟!

أخفيت الهاتف سريعًا داخل حقيبتي..

ـ هل هذا توقيت مناسب لأية محادثات إلى من كنت تتحدثين؟

ـ أحد زملائي في الكلية، هل تريد التأكد؟

ـ لا وقت، هيا لقد استأذنت "كيتي" كي تذهبي معي.

ـ وافقت بسهولة؟!

ـ لا في البداية قالت الوقت غير مناسب، لكنني ألححت عليها هيا "كيتي" الأمر ضروري تعلمين أني لن أطلب طلبًا مثل هذا إلا إذا كان مهمًّا، في النهاية وافقت دون استفسار.

ـ إذن لم تضطر للكذب بشأن ذهابي معك، أمر جيد لن تضطر للتكفير عن كذبتك، أعتقد أنها ظنتك تتقرب مني مُستغلًا الظروف.

ـ ربما أفعل.

ذهبنا سويًّا في سيارته ومن خلفنا بسيارتهم الجنود المكلفين بالحراسة، بدأ "إزيه" عملية غسيل مخ في الطريق ليجهزني لما سأواجهه من أسئلة فبدأ في تذكيري بما درسنا صغارًا، أو تحفيظي على وجه الدقة.

ظلَّ يتحدث طيلة الطريق عن إسرائيل كدولة ديمقراطية وعن أمنها وعن أرض الميعاد والهيكل وإعادة بنائه ليعود مخلصنا فتعم اليهودية العالم ويفنى كل الأغيار، نحن شعب مميَّز لدى الرب، لذا منح الوعد الماسي لبني إسرائيل وعدًا مقدسًا علينا تنفيذه.

عُذبنا لسنوات طوال بالسبي والتشريد ثم بالهلكوست، من حقنا نيل ما نستحق حسب الوعد لقد عاقب الرب من عذبونا..

يقول يهوه[1]: "إن اليهود أحب إلى الله من الملائكة، فالذي يصفع اليهودي كمن يصفع العناية الإلهية سواء بسواء".

علينا الحفاظ على ما وصلنا إليه لا ينبغي أن نعود للعذاب ثانية لن نعود كما كنا أيام السبي لننوح ثانية على أطلال صهيون الضائع منا "على أنهار بابل جلسنا وبكينا عندما تذكرنا صهيون، ومعذبونا سألونا فرحين: رنموا لنا ترنيمات صهيون، كيف نترنم بترنيمة الرب في أرض غريبة؟!".

ـ كنت صامتة أستمع إليه، أراقب السماء وسحبها في هدوء، ثم قاطعته..

لكننا وقعنا العهود معهم وعلينا الالتزام بها، لم لا ننفذ ما نعد به، لم نخلف وعودنا؟!

ـ علينا أن نهيئ الأرض لمخلصنا، أتسمعينني "تويفا" هي أرضنا.. ميراثنا "تويف" عليك التمسك بهذا ودعك من هراء أبحاثك، يقول يهوه "يجوز الرياء تجاه الأشرار" وذكر في سنهدرين "لا تظلم عاملك إذا كان من إخوتك، أما الأغيار فيشذون عن هذه القاعدة".

حتى الربانين في المواعظ أخبرونا:

---

(١) مزامير (١٣٧:١)

"إذا كانت هذه الكرمة لغريب، فاقطف منها، وإذا كانت ليهودي، فلا تمسَّها" وكذلك "إن ممتلكات النصراني بالنظر إلى اليهودي هي ممتلكات لا مالك لها، وأول يهودي يتولى عليها غيره يكون مالكها الأصيل"

لذا فكل ما معهم هو في الحقيقة هو ملك نحن حملة العهد وحافظو كلمة الرب، وإذا عارضونا فعلينا تطبيق شريعة التلمود: "اقتل عبدة الأوثان، ولو كانوا أكثر الناس كمالاً".

ـ لهذا قتلتما "عامر" دون شعور بالذنب.

ضرب مقود السيارة بيده صارخًا فيَّ: هل أذكر الأمثلة من التوراة والتلمود لتجيبني هكذا؟، أتعلمين لماذا توسط والدكِ وساندني في الانضمام إلى الجيش؟! أتودين معرفة الثمن؟

ـ قتل عامر، هل قتلته أنت؟!

ـ بل وشيت بعلاقتكما، أنا من أبلغه منذ البداية، حاولت التقرب إليك كثيراً ولكنك لم تفهمي، لم تمنحيني الفرصة حتى، واقتربت من هذا الوغد، لا تتبلدي هكذا ودعك مما لا يفيد، مصلحتكِ هي الأهم الآن، انظري في عَيني وكرري:

"جزاء الله أن يأتي ويخلصكم، ومعذبو الرب يرجعون إلى صهيون بترنم وفرح أبدي"[1]

"قطع الرب مع إبرام ميثاقًا قائلاً: لنسْلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات"[2]

"لَيْسَ لأَجْلِ برِّكَ وَعَدَالَة قَلْبِكَ تَدْخُلُ لتَمْتَلكَ أَرْضَهُمْ، بَلْ لأَجْلِ إِثْمِ أُولئكَ الشُّعُوب يَطْرُدُهُمُ الرَّبُّ إِلهُكَ منْ أَمَامكَ، ولكَيْ يَفِيَ بالْكَلاَمِ الَّذي أَقْسَمَ الرَّبُّ علَيْه لآبَائكَ إِبْرَاهيمَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ. فَأعلمْ أَنَّهُ لَيْسَ لأَجْلِ برِّكَ يُعْطيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ هذه الأَرْضَ الْجَيِّدَةَ لتَمْتَلكَهَا، لأَنَّكَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَة"[3]

أحبك أكثر وأنت مطيعة مستسلمة هكذا، هيا كرري معي:

"الربُّ قد اختار صهيون .اشتهاها مسكنًا له .هذه هي راحتي إلى الأبد .ها هنا أسكن لأني أشتهيها .طعامها أباركه بركة، فساكنها أشبعه خبزاً، كهنتها ألبسهم خلاصاً"[4].

. . . .

* * *

(١) أشعياء (١:٣٥)

(٢) التكوين (تك: ١٨:١٥)

(٣) التثنية (٥:٦)

(٤) مزمور ١٣٢ (١٣:١٧)

20- من نهر مصر إلى النهر الكبير

كنت أكرر خلفه ساهية . .

أكرر دون وعي، أكرر وهو لا يعلم أنني أنظر إليه وأكرر بلساني فقط دون انتباه؛ فالأفكار تتصارع داخل رأسي، بدأت أركز في ملامحه وجسده وكأنما أراه لأول مرة، قارنت بينه سريعًا وبين "وليد" و"عامر" كانت الكفة لصالحهما ولكن . .

ماذا أقول فهذا أوروبي، وهذان عربيان بشرتهما سمراء بدرجة محببة، أجسادهما نحيفة ولكن معهما تشعر بدفء وحرارة الشمس، لقد أصبح "وليد" أكثر جاذبية؛ حاولت تخيّل "عامر" فلم أستطع تكوين صورة له في مخيلتي غير صورته ونحن في الجامعة، فهي التي سيطرت على أفكاري.

يا يهوه أعنيْ . .

أعتقد أنك ستكون المرحلة التالية في حياتي "إزيه" عليك الآن تحمل وزر تسفيهك بآرائي وأفكاري، و"عامر" ليس بحيوان ولا من ينتمي إليهم عبيد، سأثبت هذا بفضل حمايتك.

ابتسمت وأكملت إعادة كلام الرب بهدوء وثقة طالما هو ما سينقذني من مصيري الحالي:

"جزاء الله أن يـأتي ويخلـصكم، ومعـذبو الـرب يرجعـون إلى صهيون بترنم وفرح أبدي" .

"لنسْلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهـر الكـبير، نهر الفرات" .

"لَيْسَ لأَجْلِ برِّكَ وَعَدَالَة قَلْبكَ تَدْخُلُ لتَمْتَلـكَ أَرْضَـهُمْ، بَـلْ لأَجْلِ إِثْمِ أُولئكَ الشُّعُوب يَطْرُدُهُمُ الرَّبُّ إِلهُكَ منْ أَمَامكَ، ولكَيْ يَفِيَ بالْكَلاَمِ الَّـذي أَقْـسَمَ الـرَّبُّ علَيْـه لآبَائـكَ إِبْـرَاهيمَ وإِسْـحَاقَ ويَعْقُوبَ. فَأعلمَ أَنَّهُ لَيْسَ لأَجْلِ بـرِّكَ يُعْطيـكَ الـرَّبُّ إِلهُـكَ هـذه الأَرْضَ الْجَيِّدَةَ لتَمْتَلكَهَا، لأَنَّكَ شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَة" .

ـ ماذا تعني جملة "شَعْبٌ صُلْبُ الرَّقَبَة" إزيه؟

ـ أننا أقوياء.

ـ كنت أعتقد أنها تعـني شـعب عنيـداً لا يقتنـع إلا بـالقوة ولا يؤمن إلا بما يراه ويعاينه حتى وإن كان يهوه من يخبره عنه؟!

ـ لا داعي لهذه التفسيرات الآن وكفاك حديثًا لا يُجدي.

صمت لكن فجأة تردد داخل رأسي..

صوت "عامر" وهو يرتل كأنما عقلي الباطن يقويني..

آية كان يكررها دائمًا أمامي فظللت أرددها بيني وبين نفسي:

" وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ "[1] .

* * *

(١) سورة النور- الآية (٥٥)

آه لعمري الضائع في بحر وهمك البراق مملكتي، يا يهوه تعال انظر ماذا فعلت عشيقتك قديسة الغنج ذات الرقبة الصلبة، بنت يهوذا وإسرائيل، أوجعتني قهراً كما أشبعتني أنتَ وهنَّ بتعاليمك المذبذبة وما منحتني من حياة آلمتني صبراً شائكًا.

يا يهوه وقوة النون حاملة هذا الكون بكل ما فيه، يا يهوه وجبروت خلقك من بشر وجان وحيوان، لن أرضى لنفسي ولا لغيري بهوان ودون ذلك احتضان نعش بارد الشجر للروح قبل الجسد، فاسمعني أيها الإنسان يا من ملك ناصية الكذب والخداع.

أيها الفاني خلقت حرة والكون معي طليق نعيش كما الفراشات، فإن كنت أنتَ من ارتضى لي الهوان؛ فـ والله وعزة عرشه فوق سبع سماوات أنا لن أرضى.

يا يهوه بعمق حبي الذي اغتيل، أرزقهم حرقة قلب تفتتهم، وإن كان ليَّ نصف الدعوة! فأحرقهم.. وأحرقني؛ ولا تبقى منا ذره رمل عليَّ اهدأ.

تويفا ميزار

محمد جهاد إسماعيل

كاتب وفيلسوف, باحث في علم الحضارة, لأديان المقارنة, والأنثروبولوجيا.

ظلت تويفا ميزار طيلة أحداث الرواية, ترزح تحت نير تناقض ثقيل؛ هو التناقض بين الحقائق الأركيولوجية الأكيدة التي تؤمن بها وتدرسها في الجامعة, وبين الخرافات التوراتية التلمودية التي تفرضها عليها أجواء أسرتها, وتربت عليها منذ نعومة أظافرها، إذاً هو تناقض بين قناعاتها العلمية, وقناعات عائلتها المتطرفة الدموية.

تعرضت تويفا لإرهاب فكري فظيع, مارسه ضدها أفراد العائلة. وتعرضت لإرهاب من نوع آخر, تمثل في قيام والدها بإجهاض قصة الحب الجميلة التي عاشتها مع الشاب العربي.

تؤمن تويفا أن اليهود ليس لهم أي حق تاريخي في أرض فلسطين, لأنهم جاؤوا إليها متأخرين. فالفلسطينيون القدماء سكنوا هذه الأرض قبل اليهود بآلاف كثيرة من السنين, وشيدوا فيها (أريحا) أول مدائن الدنيا, وأقاموا الحضارتين النطوفية والكبارية.

كانت تويفا في هذه الرواية إجمالاً, وكأنها تتحدث بلسان روجيه جارودي في كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية), وكأنها تتحدث بلسان شلومو ساند في كتابه (اختراع الشعب اليهودي).

* * *

شكر خاص

الكاتب/ محمد جهاد إسماعيل "مراجع تاريخي ولاهوتي" .

الأستاذ/ محمود سيد أبو ضيف للمراجعة اللغوية .

الكاتب/ خالد الجزار شكراً جزيلًا بحجم الكون .

الكاتبة/ أمل زيادة الراقية دائمًا .

الكاتب/ عادل إدريس المسلمي .

المحامية/ حنان الزواوي .

الكاتبة/ ثورة الحوامدة .

الكاتبة/ منال عبد الحميد .

الشاعرة/ آيات محي الدين .

وأخيراً وليس أخراً . .

إدارة دار الكتاب العربي ودار الوليد/ آل ناصيف .

المراجع

١ . التوراة بالعربية، دار الأنصار، القاهرة ١٩٧٨ .

٢ . إبراهيم الدسوقي، خفايا التلمود، دار الكتاب العربي، دمشق ٢٠٠٨ .

٣ . د. أحمد ربيع أحمد يوسف، أرض الميعاد بين الحقيقة والمغالطة مناقشة نصوص التوراتية .

٤ . أنيس صايغ، بلدانية فلسطين المحتلة (١٩٤٨ ـ ١٩٦٧)، بيروت ١٩٦٨.

٥ . المطران بولس حنا مسعد، همجية التعاليم الصهيونية، الكتب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣ .

٦ . د. تحيه عبد العزيز إسماعيل، شرع الله والاشتراكية .

٧ . د. زينب عبد العزيز، من حائط البراق إلى جدار العار، القاهرة ٢٠٠٤ .

٨ . د. حسن ظاظا، القدس مدينة الله . . ؟ أم مدينة داود . . ؟ .

٩ . عبد الله التل، جذور البلاء، المكتب الإسلامي، بيروت١٩٧٨ .

١٠ . د .عودة عبد عودة عبد لله، التلمود وأثره في صياغة الشخصية اليهودية .

١١ . د. غازي السعدي، الأعياد والمناسبات والطقوس لدى اليهود.
١٢ . د. فؤاد حسنين علي، التوراة عرض وتحليل، دار المستقبل، القاهرة١٩٥٦ .
١٣ . محمد بن علي بن محمد آل عمر، عقيدة اليهود في الوعد بفلسطين- عرض ونقد.
١٤ . د. محمد عبد السلام منصور، الوعد الإلهي في العهد القديم بعودة الفلسطينيين إلى أرض فلسطين، بحوث التاريخ القديم والآثار، المؤرخ العربي ١٧٦ .
١٥ . د. محمود بن عبد الرحمن قدح، الأسفار المقدسة عند اليهود وآثرها في انحرافهم- عرض و نقد.
١٦ . د. مصطفى محمود، إسرائيل البداية والنهاية.
١٧ . مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٧ ق٢، بيروت١٩٧٤.
١٨ . وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية "وفا" .
١٩ . موقع ويكيبديا.
٢٠ . موقع جيش الدفاع الإسرائيلي.
٢١ . شبكة فلسطين للحوار.
٢٢ . وغيرهم. .

صدر للكاتبة

ورقيًّا:

ورقيًّا:

مجموعة قصصية "روح وجسد" – دار أكد للنشر والتوزيع ٢٠١٤ .

رواية "شهرنان" ـ دار غراب للنشر والتوزيع ٢٠١٥ .

رسائل "ماذا لو؟!" ـ دار جولدن بوك ٢٠١٧ .

رسائل "يا أنت . . أنا" ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١٨ .

قصص "موت على قيد الحياة" ـ دار جولدن بوك ٢٠١٨ .

نصوص "ثرثرة وجع" ـ دار جولدن بوك ٢٠١٩ .

نشر الكتروني

نصوص "إليك أنت" .

نثريات "ليل والحياة" .

خواطر "اسمع بيانولا ـ بهية" .

خواطر "احتلال جنية الأحلام ـ كلمات ضائعة" .

قصائد نثرية "ثنائيات ليل" ـ مع آخرون ـ مبادرة اسمع كتاب .